البَابُ الثالث

فى العَدوى والأمراض المعدية

٢١

خدعوك فقالوا :

إن التطعيم واق من الجدرى فى كل الأحوال

نستطيع اليوم أن نسمع عن وجود إصابات بالجدرى . فلا يرتعش لنا عصب أو نحس بالذعر الذى كان يحسه أجدادنا الأوائل عندما يدهمهم مثل هذا النذير .

إن هذا الوباء الذى تقاسم هو والطاعون فى القرن الثامن عشر لقب « الموت الأسود » والذى هزأ ميكروبه بالعالم عدة قرون منذ فجر التاريخ قد حطم مخالبه القاتلة طبيب قروى صغير عاش فى أوائل القرن التاسع عشر فى قرية صغيرة من قرى إنجلترا ، فدان العالم بذلك اللقاح الباهر الذى أصاب الجدرى فى مقتل ، والذى اكتشفه قبل أن تعرف جرثومة المرض ، وقبل أن يدرك البشر قليلا أو كثيراً من جراثيم الأمراض . . .

قدم التاريخ

إن الجدرى مرض قديم قدم التاريخ ، وقد وجدت آثاره البشعة على وجوه موميات الفراعنة ، ولكنه لم يفض على العالم كطوفان إلا فى القرن السابع عشر ، حيث كانت موجاته المتلاحقة تعصف بالمدن والمدنيات ، وحيث كان كل إنسان مقدراً عليه أن يصاب به قبل أن يبلغ أشده ، وحيث كان الآباء والأمهات يعرضون أبناءهم لعدواه القاتلة حتى يفرغوا من أمرهم ، ويرفعوا عن رقابهم هذا السيف المصلت ، إما

إلى موت ، وإما إلى حياة ، وحيث كانت الأم فى الصين لا تعد من أولادها ولداً لم تقرعه القارعة بعد ، فتفصل فى أمره : ألها الولد أم لثواه الأخير فى التراب . .

وبلغ ضحايا الجدرى فى أوربا فى القرن الثامن عشر ستين مليوناً . .

وخلال الحرب الأوربية التى تلت الثورة الفرنسية . مات بالجدرى وحده فى أوربا ستة ملايين !

وعندما أدخل الإسبان الجدرى إلى أمريكا بعد اكتشافها بخمسة عشر عاماً مات فى المكسيك من الجدرى ثلاثة ملايين ونصف فى فترة وجيزة من الزمان . .

وقدر عدد ضحايا الجدرى بين الهنود الحمر يومئذ — وكان عددهم اثنى عشر مليوناً — بستة ملايين !

وكان عدد سكان ايسلندا فى سنة ١٩٠٧ خمسين ألفاً مات منهم بالجدرى ١٨ ألفاً عندما داهمهم الوباء فى ذلك العام .

ولقد كانت مصر على الدوام مسرحاً لموجات متتالية من هذا الوباء ، تعصف بسكانها كل بضع سنوات ، والذين أدركوا منا بداية هذا القرن ، كثيراً ما طالعتهم أفاعيل الجدرى فى أولئك الذين نجوا منه ، وجوهاً منقورة وعيوناً عمياء . .

حتى الملوك !

ومنذ عرف الجدرى لم يعرف عنه . . أنه احترم أحداً لجنس أو لمركز أو لسن ، فحيثما كانت تقع جرثومته على أرض صالحة ، كانت

تنبت وتينع وتبطش ببلاط الملك كما تبطش بكوخ الفلاح . .

مرض به شارل التاسع ملك فرنسا ، فانخسف جزء من أنفه ، حتى أصبح له أنفان !

وأصيب به لويس الرابع عشر . . .

ومات منه لويس الخامس عشر بعد أن نجا منه مرة فى صباه . . . .

وقضت نحبها تحت سنابكه مارى الثانية ملكة إنجلترا فى عنفوان الشباب . . .

إن عدواه عدوى طيارة كعدوى الحصبة والأنفلونزا ، يعتبر فيها مريض الجدرى كوكب النحس ، يرسل أشعته القاتلة على مخالطيه ومخالطى مخالطيه فى كل اتجاه . . . لا عاصم منها إلا اللقاح . .

شاعر يدين العالم !

كان « إدورد جنر » الذى اكتشف لقاح الجدرى فى سنة ١٧٩٦ شاعراً من شعراء الطبيعة ، وموسيقاراً يعزف على الناى والقيثار ، وهاوياً من هواة الطيور ، وعندما أعلن اكتشافه على الجمعية الملكية الطبية بإنجلترا ، قوبل اكتشافه بالرفض والاحتقار !

ولكن ماهى إلا سنوات حتى كافأه البرلمان الإنجليزى على هذا الاكتشاف الخطير بعشرة آلاف جنيه ، زادها بعد أربع سنوات إلى ثلاثين ، وعينه طبيباً فوق العادة للبلاط الملكى . . . وكتب له رئيس الولايات المتحدة يومئذ يقول : « إن أمم المستقبل ستعرف من التاريخ

أن مرضاً رهيباً اسمه الجدرى كان يبطش بالعالم يوماً ما ثم انقرض على يديك ! »

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلها لسوء الحظ ، لأن اكتشاف « جنر » لم يول من الرعاية ما يستحقه على الدوام . . .

لقد اصطدم بالخرافة ، كما اصطدم بالعقيدة ، ولكنه انتصر فى النهاية ، وأصبح اليوم سلاحاً ضد الجدرى معترفاً به فى كل مكان . .

ولقد كانت مصر من أوائل الأمم التى اعتنقت سنة التطعيم ضد الجدرى على يد « كلوت بك » فجعلته إجبارياً على كل طفل قبل أن يبلغ الشهر الثالث من عمره ، كما أنها حتمت على البالغين إعادة التطعيم كل أربع سنوات ، وكلما رفع الجدرى رأسه ، وعرض أحداً من سكانها لعدواه .

خرافات ..

ولقد كانت هذه السياسة خليقة أن تجتث جرثومة الجدرى اولا اصطدامها هى الأخرى بسلسلة من الخرافات . . . .

وأولى هذه الخرافات أن التطعيم إذا لم يحدث فى ذراع المطعم آثاره المعروفة كان هذا دليلا على مناعته الطبيعية على الداء . .

وليس أوغل من هذه الخرافة فى الضلال !

فالجدرى لا توجد مناعة طبيعية عليه . . وإنما يفشل التطعيم إذا فشل

لأن الطعم المستعمل إذا فارق الثلاجة أصبح سريع البوار ، يفسد إذا تعرض للدفء زمناً فى جيب الطبيب ، ويفسد إذا استعمل فى خدش الجلد مبضع ساخن ، ويضيع فعله إذا سال من خدش الجلد فى موضع التطعيم دم كثير ، أو أسبغ الكم على موضع التطعيم قبل أن يتشرب الجراثيم . . وكثيراً ما يرى الطبيب أطفالا طعموا أربع مرات أو خمس مرات دون نتيجة ثم يطعمون السادسة فينجح التطعيم ويؤتى أكله المعروف .

مناعة « الكونكريت »

والخرافة الثانية أن المناعة الحادثة من هذا التطعيم مناعة كمناعة « الكونكريت » على الرصاص . . وهذا وهم ، فإن المناعة الحادثة وإن كانت قوية فعلا ، وقد تدوم عدة سنوات ، فإنها لا تدفع المرض فى كل الأحوال . .

ومن أجل ذلك تستوجب وزارات الصحة إعادة التطعيم ، كلما وجد المرض وحدث التعرض لعدواه ، بغض النظر عما إذا كان الشخص قد طعم من قبل فى زمن قريب أو بعيد . . .

نعم إن مثل هذا الشخص المطعم قبل عام أو عامين ، لو أدركه النحس فأصيب بالمرض ، كانت إصابته بسيطة . وكان مرضه رفيقاً ، وكادت مضاعفاته تنعدم ، ولكنه مع ذلك يكون مصدراً لعدوى مخالطيه عدوى قاتلة إذا لم يعصمهم اللقاح .

مسألة وقت !

والخرافة الثالثة أن التطعيم الناجح يدفع المرض عن مخالطى المريض إذا عمل فى أى وقت كان . .

وهذا ضلال ؛ فإن المناعة الحادثة من الطعم لا تنشأ إلا بعد تسعة أيام من عملية التطعيم الناجحة ، ولذلك يعتمد رجال الصحة فى هذا المرض على مزية التبكير بعملية التطعيم ، على أوسع نطاق ممكن ، حتى يقطعوا الطريق على الوباء . .

ولقد حدثت يوماً ما إصابة بالجدرى فى نيويورك ، فحشدت السلطات الصحية هناك كل أطباء المدينة ، بحيث تم تطعيم ثمانية ملايين شخص فى بضعة أيام ، فانحسم الوباء . .

الاستحمام والتطعيم

وهذه خرافة أخرى نبتت مع غيرها من خرافات التطعيم ، وظن كثير من الناس أن الشخص المطعم يجب ألا يقترب من الماء ، حتى يصل الطعم إلى آخر مداه . . .

والواقع أن جرثومة الطعم مادامت قد انغرست فى خدش الجلد فإن الماء لا يزيل أثرها الدفين .

ويكفى أن يمتنع المطعم عن الاستحمام يوماً ، ثم يستحم فيما يليه كما يشاء

وليس الحمل من موانع التطعيم كما يعتقد كثير من الناس ، وإنما

تمنع منه وتدعو إلى تأجيله الأمراض الجلدية والإكزيما ، والضعف الشديد ، والحميات .

سلاح لا يخيب

إن فى يدنا الآن سلاحاً لا يخيب ضد الجدرى ، ولكن ما قيمة سلاح لا نستعمله ، وما جدوى السيوف فى الإغماد ؟

إن الجدرى مرض لا يلعب معه . ويكفى أن أردد ما قاله عنه المؤرخ الأديب « ماكولى » لأختتم به هذا النذير :

« إن هذا المرض الذى انتصر عليه العلم انتصاراً مجيداً كان يوما ما أفظع سفير من سفراء الموت فى العالم . . لكم ملأ أفنية الكنائس بالجثث وكم عذب بالخوف الدائم ألباب أولئك الذين لم يصابوا به ، وكم ترك آثاره الرهيبة على أولئك الذين نجوا منه ، وكم حول الرضيع إلى مسخ ترتعش أمه من مرآه ، وكم جعل من وجنات العذراء الفاتنة وعيونها الساحرة مصدراً للرعب والفزع فى عين خطيبها الولهان ! »

٢٢

خدعوك فقالوا :
إن البرد أصل الزكام !!

الزكام عدوى ، وليس البرد إلا عاملا تافهاً فيه ، شأنه شأن عدة عوامل أخرى تضعف مناعة الجسم على جرثومة الزكام .

وفى آخر رحلة لمستكشفى القطب الشمالى ، حيث تكون حرارة الجو دون الصفر بمدى بعيد ، لم يصب أحد من هؤلاء المستكشفين بالزكام حتى فتحوا صندوقاً للملابس ، واستنشقوا ما علق بها من جراثيم الزكام .

وقلما تصاب بالزكام وأنت تركب البحر أو تضرب فى الصحراء مها اشتد البرد وقسا الزمهرير .

ومن المؤكد أن الإنسان الأول عندما كان يعيش فى العراء ، وفى أحضان الطبيعة ، قليل الحاجات والمطامع ، لم يكن يعرف الزكام ، وأنه لم يعرفه إلا منذ عرف الغرف الدافئة المكتظة ، وعرف « السينمات » والملاهى والمراقص ، وعرف زحام المطامع الموبقة فى سباق البشر القاتل على أسلاب الحياة .

إن المزكوم إذا عطس خرج من فمه وأنفه قرابة مائة ألف قذيفة ، كل منها موسوق بألوف الجراثيم ، وكل منها يبلغ من الصغر حداً لا تراه العين ، وكل منها يسبح فى الهواء عدة أمتار ، وقد يبقى

عالقاً به بضع دقائق ، ومن ثم كان خطر الازدحام فى « السينمات » والمدارس والمكاتب ، وحيث تقوم الجدران والسقوف بوجه عام ، وحيث يركد الهواء وتشح أشعة الشمس المطهرة ، وتسبح هذه القذائف فى الجو على زوارق من ذرات التراب .

إن جسمك فى مثل هذه الغرف يصبح كالفرن من احتباس الحرارة فيه ، وتكون أغشية فمك وحلقك محتقنة بالدم احتقان الجلد سواء بسواء ، فإذا تعرضت بعد ذلك للهواء البارد استحال هذا الاحتقان إلى جفاف ، وفى هذا الانتقال المفاجئ ينفجر فى جسدك ما أصابه من قذائف المزكوم .

وأشد مواطن الضعف فى جسمك هى الأقدام الدافئة عندما تتعرض للهواء البارد ، وعندما أدخل تكييف الهواء على مجلس العموم البريطانى ، كان مدخل الهواء يحازى الأقدام . وعلى الرغم من أن الهواء المجلوب كان دافئاً ، فإن دفأه لم يستطع أن يناهض سخونة الرءوس المنبعثة من حرارة المناقشات ، فتخلف فى اليوم التالى أكثر من ثلث أعضاء المجلس مصابين بالزكام !!

وأكثر ما يصاب الأطفال بالزكام عندما يخرجون من مهودهم الدافئة فى الصباح حفاة الأقدام .

وليس الخطر من قذائف الزكام وحدها ، فقد تستنشق عدداً منها ولا تصاب ، لأن التربة ليست مهيأة للزرع ، أو بعبارة أخرى لأنك فى مناعة مؤقتة على جرثومة الزكام .

وإنما يهيض من هذه المناعة ويقص من حواشيها ، السهر المزمن ، والجوع ، والإجهاد على أى صورة ، والفوضى فى الحياة ، والاحتماء من « البرد» بنار المدافئ والغرف المكتظة المحبوسة الهواء .

إن الهواء الطلق البارد نعمة من نعم الله ، ولكنا نحقره لأنه رخيص ، ولو كان الهواء الطلق البارد يباع لاشتريناه بأغلى الأثمان .

وأكثر عباد الله خشية للهواء الطلق البارد المنعش وأضعفهم مقاومة للزكام هم المصبدورون ، وقلما تجد منهم من لا يسجن نفسه فى ليالى الشتاء — اتقاء البرد — فى سجن لا يعرف طريقه الهواء ، فإذا ذهبوا إلى المصحات ، أجبروا إجباراً على فتح النوافذ ليلا ونهاراً فى الصيف والشتاء ، وقد يصابون بالزكام مرة أو مرتين ، ولكنهم يكتسبون بعد ذلك مناعة على الزكام لا يؤثر فيها برد طوبة ولا زمهرير أمشير !!

ولو كان ضرر الزكام مقصوراً على أن تعطس وتسعل لهان . إن العلماء يضعونه اليوم فى قائمة واحدة مع الزهرى والسرطان .

يسمونه من أجل ذلك « طاعون البشرية الثالث » ، وذلك لأن الزكام — فوق أنه أكبر باعث على العطلة فى العالم ، يمهد الطريق لمائة مرض ومرض ، منها الزوائد اللحمية فى حلوق الأطفال ، وما قد يتبعها من هزال وضعف فى نمو العقل والبدن ، والتهابات فى الزور والآذان ، ومنها التهاب الكهوف العظمية فى الرأس ، وما يتلوه من علل فى المفاصل والأعصاب ، ومنها التهابات شعب القصبات الهوائية والرئة ولاسيما فى الشيوخ حيث يستطيع زكام بسيط أن يختم قصة الحياة فى بضعة أيام .

وكل هذا يمكن أن نتوقاه بالعودة إلى كنف الطبيعة ، وبهجران المدافئ ما استطعنا ، وبالعيش فى الهواء الطلق فى الليل والنهار والصيف والشتاء ، وبالفرار من الأماكن المكتظة المغلقة كما نفر من المجذوم ، وبتقليل التراب فى بيوتنا برش غرفها قبل الكنس بالرمل المندى بالماء ، فإن التراب الذى يتناثر فى الهواء يحمل معه ما كان استقر بالأرض من قذائف المرض ، وباعتزال الناس عندما نصاب بالزكام .

الهواء الطلق البارد منعش ومقوّ ، بل هو ترياق ، ولا يمكن أن يكون سمًّا إلا للذى يخشاه . . .

والطبيعة أم حنون لا يمكن أن تقسو على غير ابنها العاق ، الذى يكفر بآلائها ويقفل نوافذه دونها فى غير ضرورة قصوى — حتى لا يراها ولا تراه !!

٢٣

خدعوك فقالوا :
إن الكحول أمان من البرد

ما أكثر الأوهام والأضاليل التى تحيط بالكحول فى تقدير شاربيه . . . زعموه نبراسا للعقل المغلق، ووحيًا للشاعر ، وإلهامًا للفنان ، وفصاحة للأبكم ، وشجاعة للجبان ، وقوة للضعيف ، وبهجة للحزين .

والواقع من كل هذا أن المرء وهو ثمل ، أضعف منه وهو مفيق ، وأضل منه تفكيراً وأكثر منه عرضة للخطأ ، وكل ما يحس به إنما هو زيف يصوره له التحرر من هيمنة القوى العليا فى ذهنه ، وهى ضبط النفس ، والشعور بالمسئولية ، والخضوع لأمالى العرف والتقاليد والشرائع ، وهذه القوى يشلّها الكحول أول ما يفعل بعقول شاربيه ، فإذا ما انشلت هذه الأعنة الحاكمة ، ارتدّ الشارب إلى طبائعه الدنيا ، تجمع به حيث شاءت وشاء ، وصدق فيه ما قال الشاعر العربى :

والخمر كالريح . . إن مرت على عبق
تذكو ، وتخبث إن مرت على الجيف !

وأشدّ من هذه الأوهام كلها زيف ما يحس به المخمور من دفء يستعين به على ملاقاة البرد والزمهرير . . . إنه دفء كاذب ، كذب الفصاحة التى يزعمها لنفسه ، والقوة التى يتخيلها سارية فى عضلاته ، والخيال الخاطف الذى يتدفق فى ذهنه . . .

ومرد هذا الدفء الكاذب إلى ما يحدثه الكحول من تمدد فى أوعية الجلد الدموية ، وما يؤدى إليه هذا التمدد من امتلاء بالدم ، والدم بطبيعته حار . يمنح المخمور شعوراً بالدفء اللذيذ ، ولو قيست حرارته فى الوقت الذى يحس به هذا الدفء لوجدت الحرارة هابطة نصف درجة . أو درجة كاملة عن مستواها الأصيل . . . وذلك أن تمدد الأوعية الدموية فى الجلد واحتقانها بالدم ، يجعلان الجسم يفقد حرارته بسرعة . وما لم يعوض عن هذه الحرارة المفقودة بالمجهود العضلى . كالمشى والحركة ، أو بتثقيل الغطاء ، فإن المخمور كثيراً ما يتعرض لأذى البرد ، وكثيراً ما يصبح أقل مناعة على عدوى الزكام والالتهابات الرئوية .

نعم إن المزكوم فى مبدأ الزكام قد يستفيد من جرعة من الكحول وهو راقد فى فراشه مثقل بالغطاء . . . ولكن الفرق كبير بين هذا ، وبين أن يخرج المخمور من حانة مغلقة النوافذ ، مكتظة بالشاربين ثم يعرض نفسه للبرد ، استناداً إلى ما يحسّه من هذا الدفء الدخيل .

صدق رسول الله عندما قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » أو كما قال .

٢٤

خدعوك فقالوا :

القبلة سفير المحبة

إن الشفاه التى لها مذاق الرحيق ونعومة الحرير ، ونشوة الكأس ، وحمرة العندم ، يجوز أن يكمن فيها سم العقرب فى بعض الأحيان ! !

فالفم والأنف والحلق والشعب الهوائية مباءة لعشرات من الجراثيم المرضية ، قد لا تؤذى صاحبها لمناعة فيه ، ولكنها تؤذى الغير إذا لم تكن له المناعة نفسها . . . . وهذه الجراثيم تخرج من الفم مع السعال والعطاس والتثاؤب والصياح ، وكثيراً ما تموت إذا طال تعرضها للشمس والهواء ، لأن معظمها أشبه ما يكون بالسمك إذا خرج من البحر أودى به الجفاف ، ولكن إذا ما دخلت فم شخص آخر — ليست لديه حصانة الأول — نمت وترعرعت فيه ، ورعت من صحته وعافيته ما يقدر لها أن ترعاه .

إن العدوى أشبه ما تكون بقنطرة يجب أن تجتازها الجراثيم المرضية بين مصدرها فى المريض أو حامل الجراثيم ، وبين هدفها فى الشخص السليم . . . وكلما قصرت القنطرة ، وقلت فيها العوائق أصابت الجراثيم هدفها بسهولة ، وكلما طالت القنطرة وتعددت فيها العراقيل ، أخطأت الجراثيم غرضها ، وقتلتها مشاق الطريق . وعندما تتلاقى الشفاه بالشفاه فى قبلة لا تقصر القنطرة فحسب ، ولكنها

تتلاشى ، ولا تقل عوائق الجراثيم فحسب ، ولكنها تزول . وشر ما تكون القبلة وأخبث عندما توضع على شفتى طفل برىء ، وبالأخص إذا كان الطفل رضيعاً ، لا حيلة له فى نفسه ، ولا قدرة لديه بعد على دفع الأذى أو مقاومة الجراثيم .

إن هذه القبلة كثيراً ما أعدت بالسل أطفالا ، وطالما دهتهم بالأنفلونزا والحصبة والسعال الديكى والالتهاب السحائى والنزلات الرئوية وعشرات غيرها من الأمراض ، وهم من غضارة العود ، وضعف المناعة ؛ ورقة الحاشية ، بحيث لا يستطيعون الصمود .

إن القبلة قد تكون سفيراً للمحبة ، ولكن هذا السفير كثيراً ما يخطئ — دون قصد — فيحشو حقيبته السياسية ببعض آلات المرض والموت والدمار ! !

٢٥

خدعوك فقالوا :

إن الحصبة لا تصيب إلا الأطفال

كثرت إصابات الحصبة بين الأطفال فى هذه السنين ، وبدأت موجتها الوبائية تجتاح بلادنا مرة فى كل عامين . وبرغم أن معظم المصابين من الأطفال ، فليس معنى ذلك أن الحصبة تحب كل الناس ، ونفسها حلوة لجميع الأعمار ، ولكنها حيث تتوطن وتوجد على الدوام ، يكون الكبار متمتعين بمناعة قوية منذ إصابتهم بالمرض وهم أطفال والذين لا يتمتعون منهم بهذه المناعة ، يقعون مثل أى طفل تحت ضربات الوباء .

نحن والحصبة

إن انتشار الحصبة يختلف باختلاف المجتمعات . فنى مثل مجتمعنا المزدحم بالسكان توجد الحصبة فى كل الأوقات ، وعلى مدار العام ، أى أنها مرض متوطن فى بلادنا ، وإن اختلف توزيع إصاباته على أشهر العام وعلى مدار السنين — فنى السنين الوبائية تكثر فى الشتاء والربيع ، وتضع بصمتها على كل بيت به شخص أو أشخاص لا يتمتعون بمناعة عليها من مرض سابق ، أو تحصين قديم . ولما كان معظم العزل من هذه المناعة فى بلادنا

من الأطفال فإنها تنتشر بينهم ، وتنتقل مثل انتقال النار فى الهشيم من طفل إلى طفل ومن مكان إلى مكان لأنها من أسرع الأمراض المعدية انتقالاً بين المرضى والأصحاء . ويكفى أن يفتح الطفل القابل للعدوى باب غرفة أخيه المريض ، ويقول له صباح الخير حتى تكون فيروسات المرض المبعثرة فى الهواء قد دخلت أنفه أو فمه أو عينه دون استئذان . ويظل الوباء على منواله هذا فى اصطفاء فرائسه من بين الأطفال حتى تستنفد موجته كل أغراضها ، ولا يبقى من بين الأطفال القابلين للعدوى إلا قلة بسيطة ، لا يصيبها المرض لأنها لم تتعرض — عن طريق المصادفة المحض — لجيوش الوباء السابحة بغير انتظام فى الهواء — وتنحسر الموجة الوبائية فى بضعة أشهر ، تاركة مكانها لحالات مبعثرة هنا وهناك تظهر بين الحين والحين بين أولئك الأطفال الذين لم يتعرضوا لموجة الوباء . ويظل الأمر على هذا المنوال بقية العام والعام الذى يليه ، لأن المواليد الجدد من الأطفال تكون لديهم ذخيرة من الأجسام المضادة لجراثيم المرض يرثونها من الأمهات ، فتحميهم عدة أشهر من غوائل الوباء . وكذلك لا تحدث موجة وبائية فى العام التالى للموجة السابقة ، وإنما تظل الحصيبة على حالاتها المبعثرة هنا وهناك كأنها نار تحت التراب ، فإذا جاء العام التالى يكون قد تجمع من الأطفال غير المحصنين عدد كبير من بين مواليد السنتين اللتين فقدوا فيهما مناعتهم الموروثة من الأمهات ، أى أن كومة طيبة تكون قد تكونت من الحطب

الجاف ، فلا تكاد جراثيم المرض تصل إليها حتى تنتشر فيها من جديد انتشار النار فى الهشيم فتحدث الموجة التالية للوباء .

خيار وفاقوس

هذه هى استجابة مجتمعنا المزدحم لعدوى الحصبة ، هو وأمثاله من المجتمعات . بيد أن كل المجتمعات ليست من هذا القبيل ، فثمة مجتمعات صغيرة ومنعزلة لم تعرفها الحصبة قط ، ولم تطأ أرضها قدما مريض ، هو مصدر العدوى الوحيد ، أو لعلها عرفتها فى الماضى ، ثم انجلت عنها فترة طويلة من الزمن ، وفى مثل هذه المجتمعات المنعزلة التى لا مناعة فيها على الحصبة ، لا يكاد يفد عليها مريض بالحصبة حتى ينثر جراثيم المرض من حوله ، فى سخاء جعفر البرمكى ، وهو ينثر من يده الدراهم والدنانير ، فتحدث موجة وبائية جارفة لا تحترم سنًّا ، ولا توقر كبيراً ، ولا ترفق بصغير ، ولا تفرق بين غنى وفقير . ومن الأمثلة المعروفة لمثل هذه العدويات الضارية من الحصبة ، وباء حدث فى الجزء الجنوبى من جزيرة جرينلند ، المعروفة الآن بسقوط طائرة محملة بالقنابل الهيدروجينية الأمريكية عليها ، وضياعها فى الثلوج ، أصاب ٩٨ فى المائة من سكان المنطقة البالغ عددهم ٤٣٢٠ شخصاً ، وكان ذلك سنة ١٩٥١ . وفى جزر فارو الواقعة شمال الجزر البريطانية حدث وباء للحصبة سنة ١٧٨١ ، واستنفد الوباء أغراضه فى السنة نفسها ، وانجاب عن هذه الجزر التى ظلت بمنجاة منه ٦٥ عاما ،

حتى كانت سنة ١٨٤٦ ؛ حيث وفد على هذه الجزر نجار دانمركى ، ترك كوبنهاجن عاصمة الدانمرك فى ٢٠ مارس ، ووصل إليها يوم ٢٨ . وكان بادى الصحة ، لا يشكو من أية أعراض ، ولكنه بعد يومين من الوصول مرض بحمى مصحوبة بزكام وسعال واحتقان فى العينين يصحبه فيض من الدموع ، وهى الأعراض الأولى لمرض الحصبة ، وبعد يومين ظهرت فى فمه ، وعلى الغشاء المخاطى المبطن للخد تلك النقط المميزة لمرض الحصبة والتى تشبه نثاراً من ملح السفرة تبعثر على خرقة حمراء .

وفى اليوم الرابع من بداية الحمى ظهر طفح الحصبة المألوف المكون من بقع حمراء متعددة وغير منتظمة الشكل ، وتزول بالضغط عليها ، بادئة من الجبين ومن خلف الأذنين ، ثم مثنيّة بالوجه والعنق ، ومثلثة بالجذع والذراعين وهكذا حتى تشمل البدن كله ، ثم تبدأ تنطفئ بعد اليوم الثالث من ظهورها بالترتيب نفسه الذى اشتعلت به ، تاركة وراءها قشوراً رقيقة كأنها ردة الطحين . إن الأسطى النجار كان قد اتصل قبيل سفره من كوبنهاجن بمريض بالحصبة ، ولما كانت حضانة المرض عشرة أيام فقد ظهرت عليه بوادر الحمى يوم ٣٠ مارس بعد وصوله بيومين . . . ومنذ ذلك اليوم اندلعت الحصبة بين سكان الجزر بسرعة الشياطين ، وأصابت ٦١٠٠ شخص من جميع الأعمار من بين ٧٨٦٤ شخصاً هم كل السكان ، ولم يسلم من المرض غير المعمرين الذين استمدوا مناعة

من وباء سنة ١٧٨١ . ومات من المصابين ١٧٠ شخصاً بمعدل يكاد يصل إلى ٣ فى المائة من مجموع الإصابات ، وإن بلغ هذا المعدل بين الأطفال الرضع الذين لم يكملوا الحول الأول من عمرهم حوالى ٣٠ فى المائة أى عشرة أمثال المعدل العام ، ومن المعروف أن الحصبة تكون أشد ضراوة فى السنة الأولى من العمر ، وتليها الثانية ، ثم الثالثة حيث تبدأ السن التى ترفق فيها الحصبة بالمصابين ذوى البنيان المرصوص ، وإن كانت تعامل الضعفاء والمرضى بأمراض مزمنة بالقسوة نفسها التى تعامل بها الأطفال الصغار .

مرض بلا علاج

إن الحصبة فى ذاتها مرض بسيط ومسالم إلى حد كبير ، ولكنها مرض بلا علاج ، وقد تحدى حتى اليوم كل وسائل الطب والعقاقير ، وكافة حيل الأطباء . . . بيد أن المضاعفات الشريرة التى تحدثها الحصبة والتى قد تكون سبباً فى إجهازها على الرضع والضعفاء ، سواء كانت التهابات فى المخ ، أو فى الرئة أو فى الأمعاء ، هذه المضاعفات هى التى تتقهقر أمام العلاج . ومن أجل ذلك فإن علاج الطفل المصاب بالحصبة ينصب دائما على توقى هذه المضاعفات قبل حدوثها وعلاجها إذا حدثت نتيجة الإهمال فى رعاية المريض . والذى يستطيع أن يقوم بهذا العلاج الواقى هو الطبيب . والعسل الأسود لا قيمة له من هذه الناحية ، وقد يكون ضرره أكثر من نفعه

فى مثل هذه الظروف . كما أن الثياب الحمراء والستائر الحمراء لا جدوى منها فى هذا النوع من العلاج ، وإن كانت لها فائدة فهى إراحة عينى المريض الملتهبتين من الضوء الباهر الذى تمتصه الألوان الحمراء .

كاشف البلاء

فى الماضى كانت الحصبة بلاء على الطفل لا راد له ولا كاشف لأذاه — وكان ثمن المناعة الدائمة على المرض هو الاستسلام للوباء . أما الآن فيوجد لقاح واق من الحصبة يؤخذ حقنة تحت الجلد ، فى الشهر التاسع من العمر ، فيحمى الطفل من الحصبة ومن مضاعفاتها الشرير منها وغير الشرير . وهذا اللقاح فتح من الفتوح الطبية التى أفاضتها على البشر سنوات القرن العشرين . . .

٢٦

خدعوك فقالوا :

إن الحصبة يشفيها العسل الأسود والثياب الحمراء !

معرفة الأم المصرية بالحصبة وثيقة ، فبين الاثنتين خبز وملح منذ أقدم العصور ، وقدرتها على تشخيص الحصبة قد تفوق قدرة كثير من الأطباء الناشئين ، وهى قلما تخطئ فى هذا التشخيص ، وحسبها أن ترى طفلا محموماً يسعل ، ويرشح أنفه ، وتدمع عيناه الرمداء ، فتضع أصبعها على مكمن الداء ، حتى قبل أن ينبثق الطفح المألوف فى اليوم الرابع من المرض ، فتكتمل للطبيب الناشئ صورة المرض الموصوفة فى الكتاب !

إنها من هذه الناحية تستحق وساماً من أوسمة أبقراط !

ولكنها من حيث العناية بطفلها المحصوب لا تستحق فى العادة أكثر من الرثاء والتوبيخ ! . .

إنها تقتل ابنها المحصوب قتلا فى بعض الأحيان !

إن نظرة واحدة إلى أى رسم بيانى لمعدل الوفيات العامة فى القطر المصرى لتريك أن هذا المعدل يرتفع مرة كل عامين ، فيكون له بين الفترة والفترة سنام كسنام البعير .

والحصبة هى المسئول الأول عن هذا السنام ، لانتشار أوبئتها

فى مصر مرة كل سنتين ، ولأنها تقضى فى كل وباء على حياة ألوف من الأطفال الأبرياء .

إن الحصبة فى نفسها مرض رفيق لا يقتل ، ولكن مضاعفاتها — وأخطرها الالتهاب الرئوى والتهاب المعدة والأمعاء والتهاب المخ — هى وحدها التى تخط القبر للطفل المسكين .

والحصبة فى نفسها كذلك لا دواء لها ، ولا بد أن تقضى أيام ضيافتها كاملة فى جسم المحصوب ، وإنما يعالج الطبيب مريض الحصبة علاجاً يقيه — أو يداويه — من عوادى السعال والإسهال ، أى من غوائل « الحانوتى » واللحاد ! !

والوقاية فى هذه الحالة أيسر من العلاج ، فتنظيف فم المريض وحمايته من البرد ، وعزله فى غرفة جافة دافئة متجددة الهواء ، يقيه عادة من الالتهاب الرئوى ، والحرص على نظافة طعامه ، والتخفيف منه ، كفيل برد عادية التهاب المعدة والأمعاء . . .

ولكن أنّى لسواد الأمهات المصريات أن يدركن هذا ، وغاية ما يحتشدن له فى هذه الظروف هى كسوة المريض من رأسه إلى قدميه باللون الأحمر ، وحشو بطنه بالعسل الأسود ، كأنه هو الترياق . .

إن اللون الأحمر لا قيمة له فى ثوب المريض ، وقد ينفعه فى ستر مصادر الضوء فى غرفته ، لأن الضوء البراق يؤذى العين الرمداء . . ومثل اللون الأحمر فى هذا أى لون سواه .

والعسل الأسود كذلك قد لا يضر القليل منه إذا كان نقياً لم تلوثه

الجراثيم ، فهو سكر مخفف له نفع كغذاء ، ولكن الكثير منه لذاع للمعدة والأمعاء ، قابل للتخمر فيهما ، وهو كذلك مائدة طيبة للذباب ، وقلما يسلم طبق العسل المهمل من ذبابة تقع عليه فتحقنه بألوف الجراثيم التى تورث التهاب المعدة والأمعاء .

ومضاعفات الحصبة أقرب إلى الطفل الصغير منها للكبير ، وهى أفتك بهذا منها بذاك ، وفرق العام الواحد يحدث فجائع كما يحدث معجزات ، ومن هنا نشأت دعوة الأطباء الدائمة إلى عزل كل طفل يحمّ ، ويزكم ، وتحمر عيناه ، عن إخوته ولاسيما الصغار ، حتى ينتفى الشك فى أنه محصوب .

ولكن سواد الأمهات يؤمن بأن الحصبة قدر لا مفر منه للأطفال ، فيضعن السليم منهم بجوار المريض حتى يعدى الكل دفعة واحدة اختصاراً لمشاكل التمريض الطويل ، وتهويناً لنفقات الطبيب ، وقد تكون الحصبة كما يزعمن ، فإن عدواها أسرع من سريان النار فى الهشيم ، وقلما يسلم الطفل من عدواها على مر السنين إلا إذا كان قد أصيب بها من قبل . . ولكن هذه السياسة مع ذلك سياسة طائشة ، أو قل هى مؤامرة غير مقصودة بين الأم وبين الموت على أصغر أطفالها سنّاً وأضعفهم على الكفاح والنضال .

إن فخر تعريف الحصبة إلى العالم منذ ١١ قرناً كمرض قائم بذاته يعود إلى « الرازى » الطبيب العربى القديم . . .

أترى يأتى اليوم الذى نستطيع أن نقول لروح الرازى فيه :

« ونحن العرب قد وضعنا السبع الضارى فى القفص وكففنا عن أطفالنا أذاه بالتحصين » .

إن الجواب عن هذا السؤال متروك للأم العاقلة ، فهى وحدها التى تستطيع أن تقرب هذا اليوم ، وتجيب عن هذا السؤال بالإيجاب

٢٧

خدعوك فقالوا :

إن البرص هو الجذام

إن العلم لم يقض حتى اليوم على الكوليرا ولا على التيفوس ، وإن كان قد استطاع كبح جماحهما وإلزامهما الأدب فى التعامل مع الناس . وكذلك الشأن فى مرض الجذام ، وإن كان قد اختفى أو كاد من أوربا بعد عصر النهضة والتصنيع والرخاء الاقتصادى العام ، فإنه لا يزال يلسع بطابعه أحد عشر مليونا من البشر مبعثرين فى كثير من بقاع العالم المتخلف أو الآخذ من النماء . . . ولكنه لم يعد بفضل العلاج الحديث ذلك المرض المخيف الرهيب الذى كان يشوه أجساد ضحاياه ، ويمثل بهم ويدفعهم دفعاً إلى التحلل البطىء . فإن هذا العلاج الذى أنفذ أشعة الأمل فى الحياة التعسة المظلمة التى كان يحياها المجذومون ما زال يستغرق بضع سنوات ، يتحتم فيها على المريض أن يكون فى مثل دقة الساعة من حيث مراعاة النظام فى أخذ الدواء . . .

سجن .. كم كان فيه من مظالم !

إن المصير الذى كان يساق إليه المجذومون كان مصيراً زاخراً بالأهوال ، ويكفى كأمثلة للتدليل عليه ــ أن نشير إلى الأمر الذى أصدره رمسيس الثانى سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد بنفى ٨٠٠٠ مجذوم ، إلى بقعة مجهولة على حافة الصحراء ، لم يعرف لهم فيها مصير حتى الآن ،

أو الأمر الذى أصدره فيليب ملك فرنسا الملقب «بالطيب» فى سنة ١٣١٣ ، والذى كان يقضى بإحراق كافة المجذومين فى فرنسا أحياء . .

ولقد كان الجذام يختلط تشخيصه فى ذلك الوقت بكثير من الأمراض الجلدية التى تشبهه فى سمة أو أخرى من سماته المتعددة ، كالبهاق والزهرى والقوباء والصدفية ، بل حَبّ الشباب فى بعض الأحيان ! ! وكم سيق من ضحايا هذه الأمراض . إلى مقابر الأحياء التى كان يعيش فيها المجذومون ليقضوا نحبهم هناك . ولذلك لا يعجب المرء من الخلط بين البرص والجذام حتى فى التوراة .

نجاسة

فى التوراة المعربة أن الرب كلم موسى قائلا : « إذا كان إنسان فى جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير فى جسده ضربة برص ، يؤتى به إلى هارون الكاهن ، أو إلى أحد من بنيه الكهنة ، فإن رأى الكاهن الضربة فى جلد الجسد ، وفى الضربة شعر قد ابيض ، ومنظر الضربة أعمق فى جلد جسده فهى ضربة برص وهو إنسان أبرص . إنه نجس ، فيحكم الكاهن بنجاسته . . . ويقيم وحده وخارج المحلة يكون مقامه» ولا شك أن هذا المرض الموصوف فى التوراة هو الجذام ، وأن النجس المشار إليه هو المجذوم . . .

البرص فى لغة العرب

إن البرص فى لغة العرب مرض يحدث فى جسم المريض كله قشراً

أبيض ، ويسبب للمريض حكًّا مؤلمًا. فالمرض الذى يصنع ذلك ليس هو الجذام . فالجذام يشل أعصاب الحس فى الجزء المصاب ، لأن ولعه شديد بأعصاب الإحساس . . . ولعل المرض الأكثر انطباقاً على هذا التعريف اللغوى للبرص هو مرض « الصدفية » الذى يتميز بظهور بقع حمراء فى جلد المصاب ، تغطيها قشور فضية بيضاء، تشبه قطرات من الشمع الذائب سكبت سكبًا على جلد المريض أو قطع من النقود الفضية تناثرت فوق جلده هنا وهناك . ومرض الصدفية على عناده فى العلاج ، وكثرة انتكاسه بينه وبين الجذام من حيث الخطورة ما بين الأرض والسماء !

الجذام والأديان

ولم تكن علاقة الجذام بالتوراة هى علاقته الوحيدة بالأديان. . . فقد ارتبط كذلك بالمسيحية ارتباطًا وثيقًا ، وانبعث الاثنان كما يقول بيرتون روتيه مؤلف كتاب أحد عشر رجلا أزرق ، الذى ترجم للعربية بعنوان « بوليس الأمراض» انبعثا من خرائب روما ، واقتحما أوربا دون عائق فى دياجى القرون المظلمة ، وبلغ كلاهما أشده خلال شفق القرون الوسطى الطويل ، وأعقب اعتناق المسيحية فى أرجاء أوربا كافة ، اعتناق مثله لمقت المجذومين . . . وفى سنة ١١٧٩ أصدرت الكنيسة مرسومًا قالت فيه : « إن عزل المجذومين — وإن كان يتم بطريقة سليمة — يجرى بسرعة ممقوتة ، وبلا احتفال ، وإنه يتحتم

فى المستقبل حين يتم تشخيص حالة مصاب بالجذام من أحد الأطباء (أو كما جرى العرف يومئذ أن يكون حق التشخيص للقضاة) ألا يتم العزل فور التشخيص ، ولكن تسبقه حفلة كحفلات الجنازة يرتدى فيها المريض كفنًا ، ويشيّع من أقاربه وذويه تشييع الأموات . ويقام على روحه صلاة الجنازة على ضوء الشموع ، ويلقن تلقين الموتى ، ويقاد إلى مقبرة الكنيسة فينثر عليه ترابها ثلاث مرات يقال له فى أثنائها :

« كن من اليوم ميتاً بالنسبة للعالم وحيًّا بالنسبة لله » .

الجذام والطب

إن الطب بمنجزاته الحديثة قد جعل عزل المجذوم أمراً لا ضرورة له على الإطلاق . وأكثر المجذومين يعيشون اليوم أحراراً كمرضى السل سواء بسواء ، بل إن اللقاح الواقى من السل وجد أنه يقى من الجذام كذلك فى معظم الأحوال ، والمرضان كأنهما أبناء عم أو أبناء خال ، كلاهما مرض اجتماعى ، وكلاهما يمدّد بهجة الرخاء ، وكلاهما يستجيب للعلاج المنظم الطويل .

٢٨

خدعوك فقالوا :

إن المكلوب ينبح كما ينبح الكلب

المكلوب هو المصاب بداء الكلب ، والكلب مرض يصاب به الإنسان عادة من عضة حيوان مسعور . وليس بين الأمراض مرض كالكلب تمشى فى ركابه حاشية ضخمة من الأباطيل :

وأولى هذه الحاشية : أن الكلب« بسكون اللام» هو مصدر المرض الوحيد : وليس هذا من الحقيقة فى شىء ، لأن المصدر الرئيسى للمرض هو الذئب ، ومنه انتقلت العدوى إلى الثعالب وبنات آوى والكلاب والقطط وأشباهها من الثدييات آكلات اللحوم ، ومنها تصاب الثدييات الأليفة آكلات الأعشاب كالجمال والحمير ، وأخطر عضة من هذه الناحية هى عضة الذئب وتليها فى الشراسة عضة الهر ، ثم عضة الكلاب .

وثانيتها : أن إصابة الإنسان بالكلب لاتنشأ إلا من عضة حيوان هائج مسعور . . . وهذا باطل ، فإن الحيوان الكلب قد يعدى وهو فى فترة حضانة المرض ، وقبل أن تظهر عليه أية أعراض . . . وفوق ذلك فإن الأعراض فى بدء ظهورها قد تكون من اللطف بحيث إن الكلب المصاب يصبح أشد مودة لمخالطيه مما كان ، وإذا لعق أيديهم فى هذه المرحلة ، وفى جلدها خدش ، فقد يصاب المخالط بالمرض

دون أن يحسب لذلك أى حساب . ثم إن لعاب الحيوان المسعور ، قد يصبح أشد ما يكون عدوى فى دور المرض الأخير وهو دور الشلل العام ، بل إن هناك نوعاً من الكلب يسمى بالكلب الأخرس يتميز بالشلل فى كافة مراحله ، ويقضى على الكلب المصاب فى مدة يومين أو ثلاثة أيام ، ومع ذلك يكون لعاب الكلب فيه أفحش ما يكون إعداء .

وثالثتها : أن كل إنسان يعضه كلب مكلوب لا بد أن يصاب بالداء . . . وهو وهم لا يستند من الواقع إلى أساس ، وفى بعض الإحصائيات العلمية التى عملت على عدد ضخم ممن عقرتهم حيوانات مسعورة ، ثبت أن عدد الإصابات بالكلب لم يزد على ١٠ ٪ ممن عضتهم الحيوانات فى منطقة العنق والرأس ، و٤ ٪ ممن عضتهم فى الذراعين ، وأقل من ذلك فيمن عضتهم هذه الحيوانات المسعورة فى السيقان ، ولعل بعض السر فى ذلك أن جرثومة المرض « الفيروس » تختلف فى الضراوة بين حيوان وحيوان ، كما أن العضة تختلف فى شدتها ، وفى مكانها من الجسم من حيث عريه أو تغطيته بالثياب . وعدد العضات نفسه قد يكون عاملا مقرراً لمصير المصاب .

وأشيع هذه الحواشى من الأباطيل ، وهى **رابعتها** : أن الإنسان المكلوب ينبح كما تنبح الكلاب ، ويهيم على وجهه كما تفعل الكلاب المكلوبة ، فيعقر كل من صادفه فى الطريق : وليس هذا من الحق فى شىء ، ولقد نفاه طبيب فرنسى يدعى بيير جوزيف ديزولت

فى مقال نشره سنة ١٧٣٦ ، ولكن الخرافة ظل صداها يتردد فى سمع الأجيال برغم ذلك ، حتى وصل إلينا بكامل زخرفه سنة ١٩٦٧ فى كتاب محترم جاء فيه أن الإنسان المصاب بالكلب يصاب بآلام غريبة فى موضع الجرح حتى ولو كان قد حدث منذ عدة أشهر ، وكان الجرح قد أصبح كامل الاندمال ، ثم تعاود المصاب حمى خفيفة ، وتعتاده نوبات من التقلص فى عضلات البلع يصحبها ألم فظيع ، وتستثيرها أبسط المؤثرات لرؤية الماء «ومن هنا نشأت تسمية المرض قديمًا بمرض الخوف من الماء » . وهى الأخرى تسمية باطلة ، فإن المريض يكون شديد الشوق إلى الماء ، وهو لا يخافه ، ولكنه يخاف ابتلاعه وما يقترن به من عذاب أليم . وقد يصاب المريض بقلق تقطعه فترات من الاستكانة والهدوء ، وقد يصاب فى حالات نادرة ببعض أعراض الهياج ، ويتلو ذلك شلل عام يعقبه الموت فى وقت قصير .

إن المريض قد يصرخ من ألم البلع ولكنه لا ينبح نباح الكلاب ، وقد يتهيج من الظمأ ولكنه قلما يفقد عقله .

وخامستها : أن المرء إذا عضه كلب مكلوب يرسل إلى مستشفى الكلب للعلاج . . . وتلك أكذوبة ضخمة ، لأن مرض الكلب إذا حدث فلا علاج له ألبته سواء كان فى إنسان أو حيوان .

إن المصاب محكوم عليه بالإعدام حكمًا لا نقض فيه ولا إبرام ، وما من قوة فى الوجود تستطيع أن تحول بينه وبين الموت الأكيد . . .

وإنما يرسل الشخص الذى عقره حيوان إلى مستشفيات الكلب ليعطى اللقاح الواقى من المرض « وليس المصل كما يسميه الجهال» وهو يعطى هذا اللقاح على وجه الضرورة لمواجهة الخطر المحتمل إذا كانت العضة بجوار الدماغ ، أو كانت متهتكة الجراح ، أو كانت فى أكثر من مكان ، ولاسيما إذا كانت فى موضع عار من الثياب .

وسادسة هذه الحواشى من الأباطيل ؛ وإن لم تكن آخرها : أن اللقاح المستعمل الآن فى توقى الكلب هو لقاح باستير . . إن العالم مدين حقيقة لباستير يا بأول لقاح واق من المرض ، ولكن اللقاح الذى يستعمل الآن ليس نفس اللقاح .

وما أكبرها من حاشية أباطيل تمشى فى ركاب مرض واحد حتى فى عصر العلم والنور ! . . .

٢٩

خدعوك فقالوا :

جمرة حميدة !

الجمرة دمامل مجتمعة فى مكان واحد ، ويخرج القيح منها من أكثر من موضع ، كما تقول مجلة العربى الغراء ، فى مقال جامع لها عن الدمامل .

وتنشأ الجمرة من عدوى بالبكتير العنقودى ، والبعض يسمونه العنبى ، وإن لم يكن له من حلاوة العنب شىء ، برغم ما فيه من ملامح التشابه مع العنقود . وهو « ميكروب » موجود فى أنوف كثير من الأصحاء ، وعلى جلودهم ، وفى فضولهم ، ويكثر تبعاً لذلك فى منطقة السبيلين ، وتتلوث الأيدى القذرة منه على الدوام ، وتصبح أداة لعدوى الشخص نفسه أو عدوى الآخرين .

و « الميكروب » العنقودى لا يكون فى أضرى حالاته حين يخرج من شخص سليم ، وإنما تبلغ ضراوته قصاراها حين يكون صاحبه مصاباً بالتهاب كهوف العظم الأنفية ، أو بالزوائد اللحمية فى بلعومه ، أو بدمل نزاز ، أو بالتهاب الأصابع المسمى بالداحوس .

وتوصف الجمرة الناشئة من « الميكروب » العنقودى بأنها حميدة تمييزاً لها عن الجمرة الخبيثة الجلدية التى تنشأ من عدوى « بميكروب » أشد خطورة من عدوى « الميكروب » العنقودى بكثير . وهى عدوى

تصيب الماشية والخيول وتقتلها ، وتخرج جراثيمها مع فضول الحيوان المريض ، فتلوث شعره وجلده ، وحين يذبح هذا الحيوان خفية (لأنه لو أخذ إلى المذبح لصودر وأعدم هناك) يحمل القصاب جلده أو ملحقاته على كتفيه ، فيصاب بالحمرة الخبيثة فى هذا المكان ، وهى جمرة غاضبة ضارية ، سوداء كثيراً ما تقود ضحيتها إلى القبر إذا لم تسعف بالعلاج . وكانت هذه الجمرة الخبيثة فى الماضى تصيب بعض المثقفين ، نتيجة استعمال فرش الحلاقة المصنوعة من شعر الخيول الملوثة ، والتى كانت تستورد من الخارج غير مصحوبة بشهادة تثبت خلوها من هذا الميكروب الخطير .

بيد أن « الميكروب » العنقودى وإن كان « ميكروبًا » طيعًا مسالمًا فى الأغلب ، فإنه أحيانًا يتضرى ويتمرد ويحدث الدمامل . وقد يزداد تمرداً وضراوة فيحدث الجمرة الموصوفة بأنها حميدة ، برغم أنها ليس بها شىء يحمد أو يستحب أو يستساغ على الإطلاق ، فهى — ولاسيما حين تحدث فى القفا — تؤلم وتضايق وتزعج أشد الإزعاج ، وهى — وإن كانت تنتهى فى الأغلب على خير بعد أن ترى صاحبها نجوم الظهر — تتأبط الشر إذا كان المريض مصابًا بالسكر ، أو كان خائر المقاومة ، مهدم حصون الدفاع لأى سبب من الأسباب .

ثم إن « الميكروب » العنقودى — على أنه « ميكروب » مسالم — له سفالة أخرى ، فهو من « الميكروبات » التى تفرز سمومًا تسمم الطعام ، ولاسيما الطعام الذى لا يؤكل لوقته ، وإنما يترك يبيت ليستعمل

فى اليوم التالى دون أن يحفظ فى ثلاجة يحول بردها دون توالد «الميكروب» .

ونعود إلى الجمرة التى ليست بحميدة ولا مستحبة ، والتى يحدثها «الميكروب» العنقودى ، فنقول إنها نوع من أنواع المظاهرات التى يحدثها هذا «الميكروب» ، وإن كانت من أعنف مظاهراته ، ومن آلمها ، ومن أشدها قسوة على المريض ؛ وإن كانت فى العادة لا تميت .

ولو قلنا إنها جمرة حمقاء ، لكان القول أشبه بها ، فالحمق قد يؤذى ، وقد يزعج وقد يغيظ ويسىء مثل الجمرة العنقودية تماما ، وإن كان مثلها . . . لا يميت !

والشأن فى وصف هذه الجمرة بالحميدة كالشأن فى وصف بعض الأورام غير السرطانية بنفس الصفة تمييزاً لها عن أورام السرطان ، المدمرة ، والمتمردة على كل نظام . . .

إنها هي الأخرى ليس فيها ما يحمد أو يستطاب . وكل ما فيها تشويه ، ومضايقات ، وتوقع دائم للبلاء ، وانتظار أن يتحول هدوؤها الظنين إلى عاصفة ، فلو وصفت هى الأخرى بالأورام المسالمة أو الخاملة أو الخامدة لكان الوصف أقرب إلى واقعها المريب . . .

بيد أن شيئا آخر يلفت النظر فى مقال الدمامل القيم فى مجلة العربى الغراء وهو دعوة مريض الدمامل إلى الذهاب للطبيب فى بعض الأحوال دون بعض . فيذهب إليه حين يكون مريضاً بالسكر ، وحين تصاب العين بالدمامل ، وحين لا تنتهى الدمامل إلى رأس ، أى لا تنضج ولا تنبط فتلفظ ما فيها من صديد ، أما فى غير ذلك فليس

المفروض أن يجرى المريض إلى الطبيب فى كل صغيرة ؛ فليس فى أمة من الأطباء ما يكفى لهذا أو بعض هذا ؛ ولكن على المواطن أن يفرق بين الصغير والخطير . ويحمى نفسه بنفسه بالقدر المعقول .

إنها دعوة خطيرة ومحزنة . ولاسيما حين تصدر من الكويت حيث لا يفوقها من حيث نسبة عدد الأطباء إلى عدد السكان ، إلا قلة ضئيلة من دول العالم . . .

إن المرء يجب عليه وجوباً أن يجرى إلى الطبيب فى كل ما يصيبه صغر أو كبر ؛ لأن المرض عملية تتطور باستمرار ، ولا تثبت على حال . والصغير فيها قد يكبر ؛ والقليل منها قد يزداد . والصغائر فيها كثيراً ما تتحول إلى كبائر . والزغب الذى يكسو فراخ الأمراض سرعان ما يتحول إلى ريش ، بل إلى سهام كسهام المنون .

بل فوق ذلك فإن الإنسان لا يجوز أن ينتظر حتى يمرض ثم يعرض نفسه على الطبيب . إن عليه أن يتعامل مع الطبيب حتى وهو سليم ؛ فإن المرض كثيراً ما يظل كامنا فى الجسم لا يعلن عن نفسه ؛ إلا إذا ثبت جذوره ؛ وأرسى قواعده على قرار مكين . وحين يبدأ المرض فى الإعلان عن نفسه بالإعراض والنذر ؛ فكثيراً ما يكون قد تجاوز الطاقات الحالية لمعارف العلم وجهود الأطباء ؛ وأصبح يستعصى على كل علاج ؛ إلا علاج الأعراض ؛ وما أبخسها من غاية وما أتعسه من علاج !

إن الطب لسوء الحظ لا يعرف العلاج الحاسم عادة إلا للأمراض التى تكتشف فى أوائلها ؛ أما إذا أزمنت وتغلغلت فى الجسم فإن الطبيب

كثيراً ما يقف أمامها كالأبله .

إن العيب الأزلى فى تطبيق الطب فى الشرق كله ، ويبدو أنه عيب خالد ، أن نهمل الصغائر حتى تتحول إلى كبائر . ولو تعودنا أن نزور الطبيب بين الحين والحين — حتى ونحن أصحاء — لضمنا أن نكتشف أمراضنا الظاهرة والخفية فى وقت مبكر ، وأن نعالجها وعلاجها من أسهل الأمور على الطبيب .

إن هذا هو الطب فى العصر الحاضر ، والإدارات الصحية الرشيدة هى التى تبحث عن المرضى بين الأصحاء ، ولا تنتظر حتى يأتوا هم على أرجلهم إلى الطبيب بعد فوات الأوان . . . وكل طب عدا ذلك قصور من جانب الإدارات الصحية ، وجهالة من جانب المرضى ، و . . . و . . . و . . . ربى ماذا أقول ؟ . . . لأقلها بصراحة وأمرى إلى الله . . . وقلة تربية علمية من جانب الأطباء !

٣٠

خدعوك فقالوا :
إن الروماتزم ينشأ من الأملاح !

أهم وظائف الكلية أن تنفض من الدم مالا حاجة للجسم إليه من بقايا الطعام المهضوم ، وهى تقوم بهذا العمل بوساطة ملايين من المرشحات الدقيقة الفذة ، ترشح مع البول ما زاد من هذه البقايا على معدل معلوم .

وليست الأملاح التى يتردد اسمها على أفواه المرضى والأطباء إلا أنواعًا من هذه البقايا ، توجد فى البول على الدوام ، ومنها ما يعطيه رائحته المعروفة ومنها ما يسبغ عليه لونه الخاص .

وزيادة هذه البقايا فى البول إذا كانت الكلى سليمة لا تدل على مرض ، وقلتها فيه ليست معياراً للصحة ، فمقدارها إنما يتوقف — عند سلامة الكلى — على نوع الطعام الذى تأكله ، وعلى مقدار غناه أوفقره إلى هذه المواد . . والحكم على الجسم بالمرض لوجود أملاح فى البول يشبه الحكم على مدينة بالقذارة لأن لها مقلباً للزبالة !

بيد أن هذه البقايا قد يكون لها مدلولها على الصحة والمرض إذا قيست فى الدم وكان معدلها فيه أعلى كثيراً من الحد المألوف . . وهو شىء لا يحدث عادة إلا وفى الكلية آفة تعوقها عن نفض ما كان ينبغى أن تنفضه من هذه الفضول ، أو فى جهاز الهضم عيب يراكم هذه

البقايا فى الدم إلى حد يعيى طاقة الكلية ونشاطها المحدود .

وهى إن تراكمت فى الدم — لأى السببين — فقد تحدث أمراضاً ليس الروماتزم من بينها على أية حال .

لقد يحدث مرض النقرس ، وهو وجع مؤلم يبدأ عادة فى المفصل الأكبر لإبهام القدم ، وأكثر ضحاياه من أصحاب البطنة الفاجرة ، والماضى المشرف فى التهام اللحوم ، ومن أجل ذلك سمى بداء الملوك!

وقد تؤدى إلى التسمم البولى المعروف وهو مرض قاتل ينشأ عندما تشل قدرة الكلية وتعجز مرشحاتها عجزاً تاماً عن إخراج هذه الفضول .

أما الروماتزم فمرض قائم بذاته ،وهو عدوى « بميكروب» خاص هو الذى يسبب التهاب اللوزتين وبعض خراريج الأسنان ، ولبعض الناس حساسية مرهفة خاصة لهذا الميكروب ، تسبب الروماتزم .

وليس كل ألم فى المفصل روماتزماً ، فالروماتزم له صورة محدودة هى صورة التورم فى مفصل أو أكثر وانسكاب السوائل فيه ، والوجع الهائل ، وانتقال هذه الأعراض من مفصل إلى آخر ، مع حمى تصيب المريض ، ومضاعفات فى القلب يعيا تحتها عن أداء بعض عمله الهام .

إنما تنشأ آلام المفاصل عادة — عندما تسلم هذه المفاصل من مثل هذه الآفات الخاصة — من وجود بؤرة « ميكروبات » فى مكان ما بالجسم تفرز سمومها فى الدم ، ويخفى وجودها على إدراك المريض ، وقد يخفى كذلك على فطنة الطبيب .

فوجود خراج مضمر تحت سن من الأسنان ، أو التقيح المزمن فى إحدى اللوزتين أوكلتيهما أو فى الكهوف العظمية بالجمجمة ، أو السيلان المزمن فى الجهاز التناسلى للرجل والمرأة أو الإمساك المستعصى — كل هذا أو مثله خليق أن يدفع إلى الدم بفيض من سموم « الميكروبات » لا ينتهى ، يؤذى المفاصل الرقيقة وسواها من الأعضاء والأحشاء .

وقد تنشأ آلام المفاصل كذلك من البدانة ، فإن المفاصل أشبه ما تكون « بالونشات » لا تقوى على أكثر من حمولة معينة . . .أو من نقص بعض عناصر الغذاء الكامل فى الطعام كالحديد مثلا وكبعض الفيتامينات الموجودة فى البرتقال والليمون ومن هنا نشأت عقيدة العامة فى علاج هذه الآلام بشرب عصير الليمون عدة أيام — وبطريقة خاصة — وعلى الريق !

أما الأملاح فخرافة ضخمة وهى بقية من بقايا القرون الوسطى ، وقصور العلم فيها عن تعليل كثير من خواص الصحة والمرض فى الإنسان . وكثيراً ما يلجأ الطبيب إلى تشخيص علة مريضه بالأملاح ليخرج من مأزق الجهل بالتشخيص الصحيح . وثمة قلة من الأطباء العارفين يضطرون اضطراراً للانسياق مع التيار ، ومجاراة المرضى الذين رسخت فى نفوسهم جذور هذه الخرافة ، فيعالجونهم من المرض الجانى عليهم ، ويزعمون لهم كارهين أنهم يعالجونهم من الأملاح !

لا تنخدع بعد اليوم بقصة الأملاح فإنها أسطورة خرافية ، والعلم لا يعترف بها الآن ، وليس لها فى سجلاته اسم ولا عنوان ، وإذا

عزا الطبيب مرضه إليها ، فالجأ إلى طبيب سواه يعرف مغانم الطب من معارف القرن العشرين ، ووفر لنفسك منذ اليوم المال الذى تدفعه لمعامل التحليل – مع بول ٢٤ ساعة ! – لاكتشاف الأملاح ! !

٣١

خدعوك فقالوا :

إن الحمى الروماتزمية تنشأ عن « فيروس »

ما أقل المعارف عن الحمى الروماتزمية ! وما أكثر المجاهيل ! وما أضيق الحقائق فيها ! وما أشد ما تبهم الأباطيل ! إن من المعارف الشبيهة بالحقائق عن الحمى الروماتزمية مثلا أنها فى حوالى ٨٦ ٪ من حالاتها تبدأ فى أعقاب عدوى بفصيلة معينة من فصائل« الميكروب » السبحى الذى يؤدى كذلك للحمى القرمزية وحمى النفاس والحمرة ، وبعض حالات التهاب الأذن والرئتين ؛ ولكل من هذه الأمراض شهرته وخطورته وشيوعه فى بعض الظروف وبعض الأوقات ، غير أن الـ ١٤ ٪ الباقية من حالات الحمى الروماتزمية ، والتى لم تسبقها إصابة سافرة « بالميكروب» السبحى ، ألقت ظلاً على هذه الحمى من حيث أصلها ونشأتها ، واحتمال حدوثها من عدوى «فيروس» خاص . و«الفيروسات » جراثيم أصغر كثيراً من «الميكروبات » ولها طابعها الخاص ، من حيث العدوى ، والمناعة عليها ، ومدى قابليتها للعلاج بالأدوية والعقاقير ، وسلوكها فى المختبر وفى البيئة وفى الإنسان ، ومن أمثلتها « فيروسات» الحماق والجدرى ، والحصبة وشلل الأطفال والزكام ؛ وقد كنت أظن هذه النظرية ولدت ميتة ، ولكنى وجدتها تنشر فى « يوميات طبيب » بجريدة الأخبار الغراء ، وإن كانت فى شحوب الأموات . ولنبدأ القصة من أولها .

استهداف

قلت إن ٨٦ ٪ من حالات الحمى الروماتزمية تأتى فى أعقاب عدوى « بالميكروب» السبحى ، بيد أن الحمى لا تأتى فى أعقاب هذه العدوى مباشرة ، ولكن بعدها بفترة من الزمن تكاد تكون ثابتة فى تراوحها بين الأسبوعين والثلاثة الأسابيع (بمتوسط ١٨ يومًا) . وقد فتح هذا باب الاحتمال لوجود مواد خاصة فى هذا النوع من « الميكروب » السبحى ، تلذع أجسام بعض المصابين ، فتستجيب هذه الأجسام للذعها بثورة غضب ، من مظاهرها الحمى والآلام المتنقلة فى المفاصل ، والتهاب القلب وتضخمه وظهور اللغط فيه ، وما إلى ذلك من أعراض الحمى الروماتزمية التى تختلف تصانيفها باختلاف الأفراد ؛ أى أن هذه المواد أشبه ما تكون بالمواد التى تحدث فرط الحساسية فى بعض الأشخاص فيستجيبون لها بالربو تارة أو بالشرى « الأرتكاريا » تارة أخرى ، أو بالإسهال .

أهو صنف بذاته من الناس ؟

وأكثر من تحدث فيهم الحمى الروماتزمية هم أكثر الناس إصابة بعدوى « الميكروبات» السبحية . وهم الطبقات الفقيرة ، التى يغلب عليها شظف العيش ، ونقص التغذية ، والعادات الخاطئة ، وسوء المسكن ورطوبته ، وازدحامه بالسكان ، وكثرة أفراد الأسرة الواحدة ،

وما يؤدى إليه ضيق الحال فى هذه الظروف من توزيع اللقمة بين عدة أفواه ، وتوزيع الغرفة بين عدة سكان ، وتوزيع تراب المكانس بين الجميع بالعدل والقسطاس . إن « الميكروب » السبحى «ميكروب» شديد المقاومة نسبيا للهواء والجفاف ، فهو يستطيع أن يعيش فى هذه البيئات زمنًا أطول فى الهواء ، والتراب ، وعلى الأغطية والفراش وثياب المريض ، بعد أن يخرج من حلق المريض أو حامل الجراثيم فى السعال والعطاس . وبنفس قوة انتشار « الميكروبات» السبحية فى هذه الأوساط الفقيرة ، يكون انتشار الحمى الروماتزمية فى هذه الأوساط .

تصريح جرىء

على أن الحمى الروماتزمية وإن كثرت فى البيئات ذات الوسائل المحدودة ، فهى ليست غريبة على البيئات الأسعد منها حالا ، والأصح مسكنًا ، والأطيب عادات ، والأوفر غذاء . فالمسألة إذن ليست مسألة بيئة وحسب ، ولكن فيها عاملا آخر يجعل سكان القصور يتقاسمون المرض مع سكان الأكواخ ، وإن كان حظهم منه أقل من حظ الآخرين . لقد لوحظ أن الآباء إذا كانوا من ضحايا الحمى الروماتزمية فإن احتمال إصابة الأبناء بالمرض يكون أكبر من احتمال الإصابة فى لداتهم الذين ولدوا من آباء أصحاء ؛ كما لوحظ أنه إذا كان الأبوان الاثنان مصابين بالروماتزم (وليس كل ألم فى المفاصل روماتزما)

فالأغلب أن يستهدف عدد كبير من أولادهم للحمى الروماتزمية ، فى أعقاب العدوى « بالميكروب» السبحى الخاص ، سواء أكانت التهاباً فى اللوزتين أو دحاساً فى الأصابع ، أو ما إلى ذلك من التهابات . ولا تجد هذه الملاحظات تعليلا لها إلا فى قوانين الوراثة ، ومن أجل ذلك أدهشنى أن أسمع فى التليفزيون ذات ليلة أحد الزملاء الأطباء يرد على سؤال عن الحمى الرماتزمية ، وهل تلعب الوراثة فيها دوراً ؟ فينفى أى دور للوراثة فى هذا الصدد ؛ وهو تصريح أقل ما يقال فيه إنه تصريح جرىء !

« الفيروس » لا يستجيب لعلاج السلفا والبنسلين

قلنا إن ٨٦ ٪ فى حالات الحمى الروماتزمية تأتى فى أعقاب عدوى « بالميكروب» السبحى تسبقها بعدة أيام . وإن هذه الحمى تكثر حيث تكثر هذه العدوى ، وإن الوراثة تمهد الطريق لاختيار المصابين ، وإن ١٤ ٪ من المصابين لا يصابون بعدوى سافرة « بالميكروبات» السبحية . وأقول « سافرة » لأن من المحتمل جداً أن تكون العدوى فى حد ذاتها خفية ، يستطيع الجسم أن ينغلب عليها ، ويدفع أذاها المباشر ، كما يحدث فى كثير من عدوى الأمراض الأخرى ، ولكنه لا يستطيع أن يهرب من جزىء « الميكروب» الذى يؤدى إلى استثارة

الأنسجة فى الأشخاص المفرطى الحساسية ، لهذا الجزىء من «الميكروب».

يبقى بعد ذلك أن نقول إن كل حالات الحمى الروماتزمية ، فى نوباتها المتتالية ، يمكن توقيها مائة فى المائة إذا أعطى المريض « بالميكروب » السبحى علاجًا كافيًا بالسلفا والبنسلين ، وتلك قاعدة بلا استثناء . ولا يوجد « فيروس » واحد يمكن توقيه بهذا الأسلوب « فالفيروسات » تهزأ بالسلفا والبنسلين عادة وبسواهما من مضادات الجراثيم ، والذى يستخلص من ذلك أن الحمى الروماتزمية بنت من بنات « الميكروب» السبحى ولا تربطها « بالفيروسات» أية آصرة من أواصر النسب بأى حال من الأحوال .

الطريق الأسهل

والطريق الأسهل لتوقى نوبات الحمى الروماتزمية فى الأشخاص الذين أصيبوا بها هو أخذ حقنة من حقن البنسلين الطويل المدى كل خمسة عشر يوما لقطع دابر «الميكروبات» السبحية كلما خطر لها أن تدخل الجسم خفية أو علانية ، وأن يستمر ذلك طوال خمس سنوات . أما استئصال اللوزتين فقلما يفيد لأن « الميكروب» السبحى يمكن أن يصيب الحلق بعد الاستئصال . بل لعل إصابته فى هذه الحالة تكون أشد منها قبل الاستئصال وأسوأ ما فى هذا الاستئصال أنه ضمان زائف لأمان مكذوب !

٣٢

خدعوك فقالوا :

إن البصل يقى من العدوى

كان البشر منذ عهد بعيد يعرفون العدوى ، ولكنهم يجهلون كيف تنشأ، فقد ظلت «الميكروبات» سرًّا مغلقاً من أسرار الطبيعة، لم يقهرها على البوح به إلا باستير وكوخ وسواهما من أفذاذ العلماء فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان هذا الجهل بمنشأ العدوى يفسح الطريق لنظريات عديدة لتعليل العدوى ، تحتل كل منها مكان الصدارة فى عقول البشر حيناً من الزمن ثم تموت .

عزيت الأوبئة فى البداية إلى غضب الآلهة، ثم إلى نقمة الشياطين، ثم إلى فعل السحرة ، ثم إلى الروائح الكريهة التى تتصعد من المستنقعات ومن مجامع الأقذار .

وباسم النظرية الأخيرة سميت الأمراض الوبائية بالأمراض «العفنة» ولايزال هذا الاسم يتردد على أفواه العوام حتى الآن عندما يتكلمون عن مستنقعات الحميات .. وباسمها سميت الكوليرا بالهواء الأصفر ، وسميت الملاريا باسمها هذا وهو يعنى باللاتينية « الهواء الردىء » .

وباسم هذه النظرية كذلك راح الناس يستعينون على الروائح الكريهة بروائح أقوى منها دفعاً للأوبئة ووقاية من العدوى، ووجدوا فى البصل

رائحة قوية نفاذة فاتخذوه دريئة من الأمراض .

لقد ماتت هذه النظريات كلها بطبيعة الحال فى ضوء العلم الحديث ، ولكن بقاياها الخرافية ما زالت ـ حيث ينتشر الجهل وتشح أنوار الثقافة ـ تملأ عقول الجهلاء .

فقدرة الآلهة على دفع المرض ما برحت ماثلة فى أضرحة الأولياء ..

والشياطين مازالت كودية الزار تخرجها حتى اليوم بوسائل شتى من جسم المريض « الملبوس » !

والسحر والسحرة ما فتئ المؤمنون بهما أكثر من المؤمنين بالطب والطبيب ! ..فأى عجب فى أن نرى البصل والتبغ يستعان بهما حتى اليوم كلما دخل السليم على مريض ! ؟

كل قنطاراً من البصل ، ودخن مائة سيجارة ، وادخل على مريض الحصبة مثلا أو الأنفلونزا ، فلن يغنيك هذا كله عن العدوى إذا لم تكن لديك مناعة ضد هذه الجراثيم .

يحتج كثير من العامة على انتفاء العدوى بقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة » . وشأنهم فى هذا شأن المحتج بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » . فبقية الآية الكريمة » « .. وأنتم سكارى» و بقية الحديث الشريف « .. وفر من المجذوم فرارك من الأسد ! »

إن العدوى ليست شيئاً محتوماً ، أو ضربة لازب كما يقولون ؛ إن لها شروطاً عديدة من ضراوة « الميكروب » ومن حصانة المخالط للمريض ، إلى غير ذلك ، ومالم تتوافر هذه الشروط لا تكون العدوى ،

ولعل هذا هو المقصود بصدر الحديث الشريف « لا عدوى .. » أى ليست العدوى حتماً محتوماً ، وإذا توافرت هذه الشروط فهيهات أن تنجو من العدوى ولو كنت فى برج مشيد من رؤوس البصل والثوم ومن أرقى أنواع التبغ والسيجار !!

٣٣

خدعوك فقالوا :

إن الكحول مطهر فعال

التطهير هو قتل جراثيم البكتريا والفيروسات المسببة للأمراض وإبادة البذور المدرعة التي تجعل لبعض هذه الجراثيم قدرة على إحاطة نفسها بها ، لتحميها من قسوة البيئة ومن سوء الظروف. وقد يرتقى التطهير إلى مرتبة التعقيم حين يقتل كافة الجراثيم — الضار منها وغير الضار — فى وسط من الأوساط .

وقد يهبط إلى مرتبة تعويق الجراثيم عن النمو ، دون أن يجهز عليها ، بحيث او زال فعل المعوق لبدأت هذه الجراثيم تعيد سيرتها فى التكاثر ، والتضرى وارتكاب الآثام من جديد .

بعض من كل

ومن أمثلة التطهير استعمال الكى أو الغلى الكافى لتطهير الملابس وتطهير ماء الشرب المرشح بغاز الكلور ، وتطهير الجلد بصبغة اليود ، أو محلول الميركروكروم ، ولاسيما حين يذاب فى الكحول .

ومن أمثلة تعويق تكاثر الجراثيم وضع اللبن المبسطر أو المغلى فى الثلاجة بعد معالجته بالحرارة ، لحين استهلاكه ، لمنع تكاثر البقية الباقية من الجراثيم فيه ، لأن البرودة تمنع تكاثر الجراثيم وإن كانت لا تقضى عليها القضاء الأخير .

ومن أمثلة التعقيم تعقيم الأدوات الجراحية ، والمحاقن ، وضمادات الجروح وثياب المرضى بالبخار المضغوط القادر على إبادة الحياة الجرثومية تماماً ، فى كافة الصور والأشكال .

ومن أمثلته كذلك تعقيم اللبن برفع درجة حرارته إلى ذورة عالية تحت ظروف تسمح بإبادة الجراثيم جميعاً ، دون إضرار مذكور بالعناصر الغذائية فيه ، وهى عملية تختلف تماماً عن بسطرة اللبن التى لا تقضى إلا على الجراثيم الضارة . . واللبن المعقم يستعمل فى كثير من البلاد ، ومنها العراق ، ولا تحتاج زجاجات اللبن المعقم لوضعها فى الثلاجة ، لأن التعقيم قضى على كافة صور الجراثيم فيه .

أين الكحول من هذه المراتب الثلاث ؟

وموقف الكحول من هذه المراتب الثلاث من مراتب التطهير هو موقف المعوق لنمو الجراثيم .

ولكنه أحسن من لا شىء .

إنه شرطى . . لا جلاد !

ولقد يمكن أن يقال بوجه عام إنه أذنى من كل مطهر للجروح ، ولكنه أحسن من لا شىء .

إنه فى تطهير الأيدى أقل من كل مطهر آخر — حتى الماء والصابون اللذين يزيلان الجراثيم إزالة — ولكنه مع ذلك أحسن من لا شىء .

وهو فى تطهير الترمومترات — مقاييس الحرارة — أقل من كل شىء ومع ذلك فهو أحسن على نفس المنوال من لا شىء .

والخير فى هذه الأحوال الثلاث التى اشتهر الكحول فيها كمطهر ، أن يسبق استعماله على الدوام ، استعمال الماء والصابون لطرد أكثر الجراثيم من الجلد الجريح ، ومن الأيدى الملوثة بفضول الأنوف والأمعاء ومن أسطح الترمومترات المستعملة فى جس حرارة المرضى بوضعها فى الأفواه ، أو فى مخارج الأمعاء .

عكاكيز أخرى للكحول

ثم إن الكحول فى كافة هذه الأحوال يجب ألا يكون نقيًّا مائة فى المائة ، إذ أنه أقوى ما يكون فعلا من هذه الناحية حين يكون فى درجة سبعين فى المائة ، أى يختلط بثلاثين فى المائة من حجمه بالماء .

وإذا أضيف إليه واحد فى المائة من حمض من الأحماض زادت قدرته على التطهير ..

وإذا رشح الكحول التجارى المستعمل فى البيت بقمع وورقة ترشيح زالت منه أكثرية الجراثيم وكل بذور الجراثيم التى تكون قد علقت به وبقيت حية فيه .

اعتراض

ولقد يقال مادام الأمر كذلك ، فلم إذن يطهر الأطباء بالكحول جلد « الزبون » قبل حقنه بالدواء ؟ ... وهو اعتراض وجيه . ولكن الواقع فيه أن قطعة القطن المبللة بالكحول التى يدعك بها الطبيب جلد

المريض دعكًا تزيل من فوق الجلد كثيراً من الطبقة المشحونة بالجرائيم ، كما لو كان قد غسل بالماء والصابون. ولقد يمكن رؤية الأثر الذى يحدثه دعك الجلد بقطعة القطن المبللة بالكحول إذا أجريت العملية على جلد قذر لم يغسل بالماء والصابون منذ حين .. إن قطعة القطن تصبح فى هذه الحالة أوسخ من عرض إبليس ، وتبدو البقعة من الجلد التى نظفت بهذه الطريقة فى وسط سائر الجلد المكفهر بالأقذار كأنها واحة فى وسط الصحراء !

والخلاصة أن الكحول قد يستعمل للتطهير أحياناً ولكن حين لا يوجد مطهر سواه ..

وأن عكا كيز التخفيف والتحميض والترشيح وإضافة مطهرات أخرى إليه كاليود أو الميركروكروم قد تساعده على الوقوف بلا خجل بين الصف الأخير من المطهرات .

وأنه حين يستعمل كمطهر فلا يجوز أن نطالبه بالمستحيل وهو تعقيم مكان الاستعمال ، فإذا حدث بعد ذلك فى هذا المكان ما لا يحمد ، فلنلم أنفسنا قبل أن نلوم الكحول « الغلبان » !

٣٤

خدعوك فقالوا :

مصل .. أو .. لقاح !

ليس للكوليرا « مصل » واق منها ، وإنما لها « لقاح » أو طعم ؛ وقد يبدو هذا لأول وهلة تلاعباً بالألفاظ ؛ ولكن الواقع أن اللقاح والمصل يختلفان اختلاف الفحم والخشب ... كلاهما يحدث ناراً ، ولكن نار الفحم أبقى ، ونار الخشب أسرع . وكذلك اللقاح والمصل : كلاهما يحدث مناعة ، ولكن مناعة اللقاح أبقى وأدوم ، ومناعة المصل أيسر وأسرع فى الظهور .

تعزى المناعة إلى تكون أجسام خاصة فى الدم تقاوم « ميكروباً » بعينه عندما يقتحم الجسم البشرى هذا «الميكروب» ويعيش زمناً فيه . ولو استطعنا أن نشبه « الميكروب » الغازى بوحش لكانت هذه الأجسام لهذا الوحش كالكمامات تدفع أذاه.

وهذه الأجسام أكثر ما تتكون عندما يصاب الإنسان بمرض معد ثم يبرأ منه ؛ فإن عدد الكمامات التى يصنعها الجسم عندئذ تكون أضعاف أضعاف عدد الوحوش ؛ وبمقدار ما يبقى منها فى الدم يكون طول المناعة على المرض وقوتها بعد الشفاء .

فبعض الأمراض المعدية تحدث « جراثيمها » مناعة دائمة بعد الشفاء قد تبقى بقاء الحياة ، وبعضها يحدث مناعة ضعيفة كالكوليرا التى لا تستمر المناعة عليها بعد الشفاء منها أكثر من عام .

والأصل فى اللقاح أنه تقليد ومحاكاة للمرض ، يطعم المرء فيه بمقادير معينة من « الجراثيم » أو سمومها ، بعد تقليم أظفارها ، وإضعاف ضراوتها ، أو قتلها قتلا ، حتى تحدث المناعة دون أن تقوى على إحداث الداء .

وبديهى أن عدد الكمامات التى تبقى فى الدم فى هذه الحالة بعد تكميم « الجراثيم » أو السموم المطعمة ، هو عدد محدود ، وبمقدار هذا العدد الباقى من الكمامات تكون المناعة الحادثة من حيث القوة والدوام . فبعض اللقاحات الواقية — كلقاح الجدرى مثلا — يحدث مناعة قد تدوم خمس سنوات أو أكثر . وبعضها — كلقاح الكوليرا — لا تدوم المناعة التى يحدثها أكثر من ستة أشهر .

وصنع هذه الكمامات فى الجسم يتطلب وقتاً ، فلا تحسب أنك عندما تأخذ اللقاح الواقى من الكوليرا تكتب صكاً على القدر ألا تصاب ... فخذ اللقاح عندما يتيسر ، ولكن لا تهمل فى وقاية طعامك من الميكروب.

أما المصل فشىء آخر .. هو كمامات مصنوعة خارج الجسم ، يتخذ الحيوان معملا لصنعها ، فيحقن الحيوان باللقاح الواقى بجرعات تتزايد مع الزمن حتى يصبح الحيوان قادراً على مقاومة « الميكروب » الحى نفسه ، ثم يستنزف بعض دم هذا الحيوان ، ويفصل منه المصل الحاوى للكمامات الواقية ، ويعطى الإنسان هذا المصل كدواء محضر ، وأكثر ما يستعمل فى علاج بعض الأمراض كالدفتريا والتتانوس ، ويستعمل فى الوقاية من هذه الأمراض نفسها عندما تنشد المناعة السريعة لتوقع

الخطر المفاجئ ، ولكن المناعة الحادثة حينئذ تكون قصيرة العمر ولا تدوم أكثر من بضعة أسابيع .

ومثل هذا المصل الواقى لا ينجع لسوء الحظ فى أكثر الأمراض المعدية ، وقد صنع للكوليرا مصل واق ولكن لم تثبت له فائدة حتى الآن .

فلا تعد إلى ذكر المصل الواقى من الكوليرا إذن ، فهو شىء يكاد يكون بلا قيمة ، ولا يكاد يكون له وجود .

ولا تركض فى الشارع كالمجنون باحثاً عن طبيب تتوسل إليه أن يحميك من الكوليرا باللقاح ، فسيأتيك هذا اللقاح إلى الباب عندما ترى الصحة أنك مهدد تهديداً حقيقياً بالوباء. فلا داعى للذعر فى غير موطنه ، ولا داعى للحاجة والإلحاح فى طلب اللقاح ، إنك تستطيع أن تتوقى الكوليرا بسهولة إذا كنت أنت ، وطاهيك وبيتك مثالا للنظافة فى الطعام والشراب ، ولم تكن « رمرامناً » تريد كالطفل — أن تأكل من كل ما تقع عليه عينك فى الطريق !!

٣٥

خدعوك فقالوا :

مصل الحصبة

كما أن الجمل ليس له منقار ، والحمامة ليس لها قنب . فإن الحصبة كذلك ليس لها مصل ، برغم ما تقرؤه عن هذ المصل الوهمى فى الصحف بين الحين والحين ! !

إن الحصبة لها « لقاح » واق ، وهو اللقاح الذى تنتوى وزارة الصحة تطعيم كل طفل به فى الشهر التاسع من عمره ، لحمايته من مرض الحصبة ومن مضاعفاتها السافلة ، التى تلهب رئتيه أحياناً ، وتلهب أمعاءه أحياناً أخرى ، وقد تلهب الأذن والمخ فى بعض الأحيان ، ولكل من هذه المضاعفات خطرة على حياة الطفل ، أو على مستقبل هذه الحياة .

ولقد يهون هذا الخطأ الشائع إذا سمعناه من رجل الشارع الذى يحتاج إلى التفريق بين الألف والمئذنة إلى تلسكوب ، وقد يهون إذا سمعناه من صحفى يخشى إذا حقق ودقق فى كل كلمة يقولها أن يسرقه الوقت ويفوته القطار .. ولكن الذى لا أفهمه ولا أستسيغه بحال أن يتحدث عن « مصل الحصبة » أستاذ جامعى فى الطب ، فى برنامج تليفزيونى مفيد عن الأمراض التى يتحتم علينا أن نحمى من غوائلها الأطفال .

نعم ... إنها قد تكون عثرة لسان ، وقد تكون محاولة للنزول إلى

مستوى الخطأ الشائع الذى يدركه السامعون . ولكن يبقى بعد ذلك أن تكرار الخطأ على هذه الصورة وتثبيته فى الأذهان ، لا يليق من أستاذ ،

اللقاح جراثيم أو سموم

إن اللقاح جراثيم مقتولة ، أو مهذبة ، أو سموم جراثيم عولجت بطريقة لكفكف من ضراوتها ، ثم تعطى هذه أو تلك للكائن البشرى فلا تحدث فيه مرضاً ، ولكنها مع ذلك تنبه جهاز المناعة فى الجسم ، وتدفعه إلى إفراز مقدار ضخم من الأجسام المضادة لهذا النوع أو ذاك بالذات ، من الجراثيم أو السموم ، فلا تكاد جرثومة أو سم منها يهاجم الجسم بعد ذلك حتى تنبرى له هذه «الترسانة» من الأجسام المضادة فتشل عمله وتمنع أذاه ، أو تقلل من هذا الأذى بحيث لا يؤدى إلى أية أضرار .

ويحتاج الجسم إلى بعض الوقت لإنتاج هذه الأجسام المضادة ، ولكنه حين يبدأ إنتاجها ينتجها بمقادير هائلة ، تشبه ما يفرز منها ، فى أثناء المرض بهذه الجراثيم أو السموم ، إذا أبل المريض من مرضه ، وتماثل للشفاء ، لذلك فإن المناعة التى تحدثها هذه اللقاحات تكون قوية الأثر عادة ويطول عمرها عدة سنين ، وقد يبقى فعلها أحياناً ما بقيت الحياة .

انتصارات اللقاح

ومن السهل عن طريق هذه اللقاحات الواقية أن نتقى بعض الأمراض

اتقاء كاملا إذا عرفنا متى يعطى اللقاح ، ومتى يعزز بشيء من التنشيط والجدرى والدفتريا وشلل الأطفال من هذه الأمراض التى يمكن استئصالها من المجتمع تماماً ، إذا تم تلقيح الطفل وتحصيله عليها بناء على خطة موضوعة ، وفى المواعيد التى يقررها الطبيب .

وشبيه بهذه الأمراض مرض الحصبة ومرض السعال الديكى ومرض السل ومرض الكزاز المعروف بالتتانوس ، فإن لها كلها لقاحات واقية ، ثبت نفعها فى الوقاية من المرض ، أو تهذيبه على الأقل وتقليم أظفاره إذا جاء . ومن أجل ذلك ينصح الأطباء جميع الآباء بحماية أبنائهم من هذه الأمراض .. أو مما تحدثه من أفاعيل السوء ، بتحصينهم ضدها باللقاحات ، بل إن الأمر لم يعد فى بعض هذه الأمراض أمر نصائح ، ولكنه أصبح مفروضاً بحكم القانون ، يعاقب الآباء إذا قصروا فيه .

شيء من التاريخ

أما المصل فقد أصبح أو كاد يصبح من حيث توقى الأمراض — قصة من قصص التاريخ .

إن المصل هو الجزء السائل من دم حيوان عولج بلقاح ما حتى تكونت فى دمه أجسام مضادة للجرثومة أو السم الموجود فى هذا اللقاح . وحينما تقوى مناعة الحيوان على هذه الجرثومة الدخيلة أو سمها ، يستنزف

جزء من دم الحيوان ، ويستخلص مصله بما فيه من الأجسام المضادة ، وهو مقدار قليل منها بطبيعة الحال يتناسب مع مقدار الدم المستنزف وبعض هذه الأمصال يستعمل حتى اليوم فى علاج بعض الأمراض كالدفتريا والتتانوس . وكان بعضه يستعمل فى الوقاية من المرض تحت ظروف خاصة من التعرض للعدوى ولكن بعد أن عمم استعمال اللقاحات ، لم يعد لاستعمال هذه الأمصال فى الوقاية مكان .

وكثيراً ما كان المصل ينتهى إعطاؤه بكارثة لأن بعض الأجسام يكون مرهف الحساسية له بنوع خاص .

ثم إن المناعة التى كانت تحدثها هذه الأمصال لم تكن تطول أو تبقى فى الجسم لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ثم تفنى فناء الدخان فى الهواء .

وفوق هذا فإن عدد الأمراض التى كانت تتقى بهذه الوسيلة كانت أقل عدداً من أصابع اليد .

ولقد كانت المزية الوحيدة لها أنها كانت على قصر المناعة الحادثة منها ، تهب للمرء حصانة سريعة ضد عدوى حدثت فعلا بمرض من هذه الأمراض ، ولكن حتى هذه المزية أصبحت اللقاحات الأصيلة تفوقها فيها إذا أعطيت فى مواعيدها وبمقتضى النظام المرسوم ، بحيث لا تترك فرصة للحاجة إلى الحصانة السريعة التافهة التى كانت تحدث فى أعقاب حقن مصل من الأمصال .

أمصال لم يعد لها وجود

إن مصل التتانوس مثلا أصبح فى بعض البلاد الغربية قصة تروى عن شىء كان يستعمله « أهل زمان» !

فتحصين الأطفال بلقاح التتانوس ، وتلقيح الجنود فى الميدان ، فى فترات معينة ، قضى نهائيًا على هذا المرض فى هذه الفئات ، كما قضى على أية حاجة لاستعمال مصل التتانوس سواء فى مجال الوقاية أو فى مجال العلاج .

ولقد أوشك الأمر فى الدفتريا أن يصبح كذلك فى هذه البلاد ..

وقد كان هذان المصلان أهم الأمصال المستعملة فى كفاح الأمراض .

أما غيرهما من الأمصال فقد تولى إلى ظلمات التاريخ منذ زمن طويل .

كن مثقفاً ..

تعود إذن أن تفكر تفكير المثقفين حين تفكر فى حماية طفلك من الأمراض باستعمال اللقاحات ، ولا تفكر أبداً فى مصل الجدرى أو مصل الحصبة أو مصل الكلب أو مصل السل ، فإن هذه الأمصال لا وجود لها ، وهى بقية من بقايا المعلومات المنقرضة ، والأخطاء التى يتنزه عنها المثقفون .

إنها الحمام الذى له قتب ، والجمال التى لها منقار!

فتأمل قليلا فى الحمام الذى حولك . والجمال التى تراها سائرة فى الطريق . فإن وجدت للأولى قتباً ووجدت للثانية منقاراً كان للحصبة مصل مضاد !

٣٦

خدعوك فقالوا :

إن « الميكروبات » كلها أشرار

تقترن كلمة « الميكروبات » فى نفوسنا دائماً بشعور الخوف والجزع من الأوبئة والأمراض ، ويبعث ذكرها فى قلوبنا رعباً غامضاً من فواجع القدر المجهول . ولا نكاد نذكر « ميكروبات » التيفويد أو الدفتريا ، أو السل ، وما تحصد من ضحايا كل عام ، حتى تقشعر أبداننا هلعاً من هول هذه الكائنات الخفية ، التى قد تكون واقفة لنا بالمرصاد على حافة كأس أو ثنايا لقمة أو ربما قبلة حلوة من شفاه نشوى بخمر الحب والربيع والشباب !

إن « الميكروبات » ليست كلها من هذا النوع المتمرد الشرير .. « فالميكروبات » الشريرة لا تعدو أن تكون قلة لا يعتد بها فى عالم ضخم من هذه الكائنات الدقيقة ، يعيش فى الهواء الذى نتنفسه ، وفى الماء الذى نحتسيه ، وفى القوت الذى نطعمه ، وفى الأرض التى تطعمنا وتمدنا بالخير والنماء ... ويساهم بنصيب هائل فى خدمة الكائنات الحية جميعاً ، وحمايتها ، والتيسير لها فى أسباب الحياة.

إن البنسلين وأشباهه من العقاقير نعمة من نعم « الميكروبات » وقطعة الجبن ، ومضغة الزبد كلها من آلاء « الميكروبات » ونشوة الكأس فضل على طلابها من أفضال « الميكروبات » .

إننا ننظر إلى حفنة من تراب حديقتنا فنخالها جماداً لا حياة فيه ، ولكن الواقع أن كل جرام واحد منها يموج بما لا يقل عن مائة مليون

من « الميكروبات » النافعة ، يضل بينها عدد تافه من « ميكروبات » الأمراض . ولولا جهود هذه « الميكروبات » النافعة لما ترعرع نبت فى الأرض ، ولا تفتحت زهرة لطل السندى ، ولا أتيح القوت لحى من الأحياء ، ولأصبحت الأرض مستنقعاً هائلا للأكدار ، والأقذار .

إن هذه « الميكروبات » التى تزخر بها الطبقة السطحية من الأرض تقوم للمملكة الحيوانية ، بأسرها بدور « الزبالين » الذين لا يكتفون بجمع الزبالة والفضول والجيف المستحيلة ، وإنما يعالجونها كذلك بطرق تمنع أذاها ، وتحيلها من طبيعتها العفنة الكريهة إلى إكسير نافع يمد الأرض بالخصب ، ويمد السندى والزهر بالقوت والحياة ، وكل مزارع المجارى فى العالم ومعظم وسائل علاج القمامة إنما ينهض أكثرها على أكتاف هذه الميكروبات . فهى — وإن قامت للحيوان بدور الزبال — تقوم للنبات بدور الطاهى « والسفرجى » وموزع الطعام ! ... وهكذا تشرف « الميكروبات » على رعاية هذه الدورة الحيوية الخالدة التى تمثل فيها الأرض مصنعاً « لطوب البناء » يبنى منه جسم الحيوان ، فيعيش ما شاء الله له أن يعيش ، ثم يموت ويبلى ، فينتشر الطوب فى الأرض ، ويعاد صنعه ليدخل فى بناء النبات ، فينمو ويكبر ، ويؤتى ثمرة ويرد « الطوب » من جديد إلى مصنع الأرض فتبنى منه « الميكروبات » جسم الكائن الحى الوليد .

بل إن أجسامنا نفسها عامرة بملايين « الميكروبات » النافعة ، تقوم فى أمعائنا مقام الحرس ، الساهر ليل نهار ، محاولا قدر استطاعته دفع ما يعتادها بين الحين والحين من « ميكروبات » الأمراض .

إن كان لنا بين « الميكروبات » أعداء ألدّاء فلنا منها بإزاء كل عدو واحد مئات من الأصدقاء الأوفياء ، ولو كان فى بنى آدم بمقدار ما فى « الميكروبات » من خير وشر لطابت الحياة .

٣٧

خدعوك فقالوا :
إن غلى اللبن لا يقتل الميكروبات
وحدة الهدف

إن غلى اللبن وبسطرته عمليتان يقصد بهما قتل الجراثيم المسببة للمرض فيه، وكلتا العمليتين — وإن اختلفتا من الناحية الفنية — نتيجتهما واحدة من حيث الوصول إلى هذا الهدف المقصود والقضاء على جراثيم الأمراض التى تصل إلى اللبن من الحيوان الحلوب نفسه ، أو فم الحالب وأنفه فى أثناء العطاس والسعال ، أو يده حين يبصق فيها — لعنة الله عليه — وهو يستدر الحليب من ضرع الحيوان أو فى النهاية من البائع الغشاش الذى رأيناه يصلى الفجر حاضراً ، ثم يميل على أول ترعة تصادفه فى الطريق ، فيضيف إلى ما معه من اللبن ، مثله من الماء القذر الملوث بكثير من الجراثيم ، ثم يحلف لك بالطلاق من زوجتيه الاثنتين أن لبنه حر لم يمسسه ماء !

قائمة خسائر

ولقد يفقد اللبن بالغلى وبالبسطرة بعض الفيتامينات الموجودة فيه ، وقد يختلف الأمر قليلا بين العمليتين فى هذا المجال ، ولكن اللبن على أى حال لا يستمد أهميته فى الطعام من الفيتامينات التى توجد فيه بمقدار صغير ، وإنما يستمد أكثر هذه الأهمية من غناه بالمواد البروتينية النفيسة ، البانية للجسم ، والمرممة لأنسجته ، والمعوضة له عما يفقد من خلاياه .. ثم من نصيب اللبن العظيم من الأملاح المعدنية ، وفى مقدمتها الكلسيوم

الذى يعد من عناصر الغذاء الرئيسية ، والذى يعد اللبن من أهم وأوفر مصادره فى الطعام ... وكلا المواد البروتينية والأملاح المعدنية لا يتأثران إلا تأثراً طفيفاً بعمليتى تحرير اللبن من جراثيم الأمراض . فلئن كان اللبن يفقد جزءاً من هذا الفيتامين أو ذاك بالغلى أو بالبسطرة فأن الخسارة ليست ذات شأن يذكر ، وفى غير اللبن من الأغذية التى نقتات بها عوض عن الجزء الذى يضيع من الفيتامينات .

حقيقتان أخريان

هذه حقائق أولية خاصة بغلى اللبن أو بسطرته ، ومن الممكن أن يضاف إليها حقيقتان : الحقيقة الأولى أن الغلى هو العملية الأبسط ، والمقدور عليها فى كل بيت ، والمعروفة لكل أم على ضفاف النيل منذ فجر التاريخ .. إنها عملية بسيطة ، رخيصة ، زكاها الزمن ، وعرفتها حتى قليلات الحظ من الثقافة بين الأمهات . أما البسطرة وتلك هى الحقيقة الثانية فعملية معقدة تحتاج إلى معرفة فنية واسعة ، وإدراك علمى دقيق ، كما تحتاج بعد إتمامها إلى تبريد اللبن بعد بسطرته مباشرة والاحتفاظ به فى ثلاجة حتى لا تعود للقلة من الجراثيم التى داخت ولم تمت بالحرارة إلى التكاثر من جديد ، وإن هذه العملية إذا لم تتم حسب مواصفاتها المعروفة ، فإنها تعطى شعوراً زائفاً بالأمان ، وتصبح مصدراً لخطر لا يوجد منه فى غلى اللبن وتبريده إلا القليل ..

عجائب

هذه كلها حقائق بسيطة ؛ ولكن إحدى شركات بسطرة اللبن

تحاول أن تهدم هذه الحقائق فى إعلان لها بالتلفزيون . فهى تزعم أولا أن غلى اللبن لا يقتل كل الميكروبات فيه .. وهذه أكذوبة ، فإن الغلى من هذه الناحية قد يكون أفضل من البسطرة فى بعض الأحيان ، خصوصاً إذا كانت البسطرة لا تستوفى كافة مستلزماتها ، وكان المبسطرون لا يخضعون للتفتيش الصحى كما يحدث فى كثير من الظروف . وهى تزعم ثانياً أن الغلى يضيع كافة الفيتامينات من اللبن ، وهى أكذوبة أخرى ، لأن الغلى لا يختلف عن البسطرة من هذه الناحية إلا اختلافاً طفيفاً لا يؤثر فى قيمة اللبن الغذائية بحال. بيد أن الأكذوبة الأخطر من هاتين : هى القول بأن اللبن المبسطر مأمون على الدوام ، فإن اللبن المبسطر ما لم يوضع فى ثلاجة إلى أن يستعمل ، قد يصبح كالمأمن الذى يؤتى منه الحذر ، وهو شىء يعرفه بعض زبائن اللبن المبسطر !

هل الإعلان رب غفور

قد يقال إن الإعلان يباح فيه أحياناً مالا يباح ، وإنه يعفو عن كثير، ولكن من المؤكد أنه لا يعفو عن الكذب أو يتسامح فيه ، فإن الكذب ليس من مصلحة المعلن نفسه ، والدقة العلمية يجب أن تتوافر للإعلان الحازم الرشيد . نعم إن من المستطاع أن تمط الحقيقة العلمية فى الإعلان بعض الشىء هنا ، أو تعصر بعض الشىء هناك ، ولكن بدون أن تختفى هذه الحقيقة أو تضيع ، أو تزهق روحها بحال .

الشمال التى لا تعرف عن اليمين

إن بالتليفزيون برنامجاً للتربية الصحية ولكن يبدو أن هذا البرنامج

الموجود فى طابق من بناء التليفزيون الشاهق ، وبرنامج الإعلانات الموجود فى طابق آخر ، والاتصال المنعدم تماماً بين الطابقين ، مثل شمال المؤمن التى لا تعرف شيئاً عما تتصدق به اليمين ، أو مثل اللسان الذى يسبح بذكر الله بدون أن يدرك شيئاً عن اليد التى معه فى جسم واحد ، والتى تسرق ، أو تعتدى على الغير ، أو تضع لهم ماء الترعة الملوث فى الحليب !! ... إن برامج الإعلان فى التليفزيون تحتاج إلى عملية بسطرة حقيقية وليست كالبسطرة التى يرفض أصحابها الخضوع للتفتيش الصحى المفروض .

عصفور فى اليد

ولعل من الخير أن أهيب فى النهاية بالقراء أن يغلوا اللبن فى بيوتهم وأن يتركوه يغلى على نار هادئة ، بضع دقائق خصوصاً فى الصيف ، فإن فى ذلك أماناً حقيقيًّا ضد كافة الجراثيم المعدية التى قد يحملها اللبن الحليب إن الغلى عصفور فى يدنا وهو خير من العصافير العشرة التى على الشجرة والتى لا يمكن بحال التأكد من وجودها فى اللبن المبسطر غير الخاضع للرقابة الصحية فى كل الخطوات ، وكل الأوقات ..

٣٨

خدعوك فقالوا :

إنك مريض بالدوسنطاريا

الدوسنطاريا هي الإسهال المصحوب بالمغص ، المشوب بالدم والمخاط . وليست الدوسنطاريا مرضاً قائماً بذاته ؛ ولكنها سلسلة أعراض تنشأ من عدة أمراض يختلف بعضها عن بعض اختلافاً جوهرياً فى السبب ، وفى وسائل العدوى ، وفى طرق العلاج .

وشأن الدوسنطاريا من هذه الناحية شأن « الحمى » فالحمى ليست إلا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ، سواء أكان سببه التهاباً بسيطاً فى اللوزتين ، أم تيفوداً فى الأمعاء ، أم دفتريا فى الحلق ، أم خراجاً فى العظام ...

إن هناك مائة سبب وسبباً للحمى ، أى ارتفاع درجة الحرارة ، كما أن ثمة أسباباً عديدة للدوسنطاريا ، التى ليست إلا مجموعة أعراض متشابهة ، لعدة أمراض يختلف بعضها عن بعض ، اختلاف الدفتريا والطاعون والملاريا والتيفود. فالدوسنطاريا الأميبية مثلا — التى تصيب معظم المصريين — مرض من أمراض القذارة و« الرمرمة » ينشره عدم غسل الأيدى قبل الطعام ، وترك الأطعمة للذباب يسرح عليها ويمرح كما يشاء وأكل الخضر « بعبلها » أى بدون غسلها بالماء الجارى والتأكد من زوال ما عليها من الأكدار .

ومثلها فى طرق العدوى ، وإن اختلف عنها تماماً فى وسائل العلاج ، الدوسنطاريا «الميكروبية» ، التى لا تنشأ عن ميكروب واحد ، ولكن من عدة « ميكروبات » يختلف بعضها عن بعض فى الضراوة والفتك وسرعة الاستسلام للعلاج .

ومن الدوسنطاريا ما يحدث من بلهارسيا الأمعاء التى تصيب أكثر من خمسين فى المائة من سكان شمال القطر لخوضهم فى الماء الملوث بأجنة هذه الديدان ، وهذا النوع — وإن تشابه وسواه فى الأعراض — يختلف عنه اختلافاً بيناً فى السبب والعدوى والعلاج .

ومنها ما ينشأ من الملاريا الخبيثة ، واكتظاظ الأوعية الشعرية فى الأمعاء بطفيليات هذا المرض الخطير .

بل إن من الدوسنطاريا ما تحدثه طفيليات أخرى بلا عدد ، بعضها من ذوات الأهداب ، وبعضها من ذوات الأذناب . .

هذه تنشأ من أكل السمك الذى لم يتم نضجه وتلك من تناول لحم الخنزير . . . وثالثة من أكل الفسيخ الحلو ، إلى آخر ما هنالك من الوسائل والأسباب . وكما أننا لانقبل الآن كلمة الحمى كتشخيص لما نعانيه من سقام ، يجب كذلك ألا نقبل كلمة الدوسنطاريا دون أن نسأل عما وراءها من آلاف العلل والآلام .

٣٩

خدعوك فقالوا :
استؤصل المصران[1] الأعور

المصران الأعور لا يستأصل ، فإنه جزء هام من الأمعاء ، يشاطرها كثيراً من الوظائف والأعباء ، وهو إذا التهب فشأنه شأن سائر الأمعاء ، ينفض العفن إلى الخارج ، ويعتل حيناً ثم يتماثل للشفاء ؛ إنما الذى يلتهب ، فيطغى ، فيهدد الحياة ، فيستأصل هو الزائدة الدودية ، وهى نتوء من المصران الأعور لاعمل له ولا وظيفة ، إلا أن يشعر ابن آدم أنه فى ريعان شبابه ، وعنفوان مجده.

إنه لا شىء إزاء قدر الله . وإن نسمة سارية من نسمات هذا القدر تستطيع أن تعصف به وبغروره وطموحه وتكالبه على الحياة .

وسمى المصران الأعور كذلك لأنه أشبه ما يكون بالزقاق المسدود بين الأمعاء الدقاق والأمعاء الغلاظ ، تصب الأولى فيه « ببوابة » وديدبان ، وتخرج الثانية منه مخرجاً سهلا بلا باب ولا حراس ، ولكن مصب الأولى ومخرج الثانية فى جانب واحد من هذا الزقاق المسدود ...

وعلى مقربة من نهاية الزقاق فى الجانب الأيمن من أسفل البطن « عطفة » تتصل به ، وتتدلى منه ، هى الزائدة الدودية التى تشبه دودة الأرض ، وهى طلل من أطلال عضو قديم كان الإنسان يستعمله يوم كان يعيش على الأعشاب ، وقبل أن يتذوق اللحوم .

وعندما تلتهب الزائدة الدودية تنسد فتحتها فى المصران الأعور فلا يجد العفن المتراكم طريقه الى الخارج ، فيزدحم فى هذا الفراغ الضيق ، بما فيه من « ميكروبات » وصديد ، وتضيق به الزائدة الملتهبة بعد حين

---

(١) المصران : مفرده مصير ، وهى المعى .

ـ إذا لم يسعف المريض بالعلاج ـ فتنفجر داخل البطن ويعم التهابها الغشاء الجامع للأحشاء . والتهاب الزائدة الدودية مرض من أمراض الحضارة قلما يعرفه البدو البداثيون ، وهو فى الحضر أكثر منه فى الريف ، ومما يهيئ له : الإفراط فى أكل اللحوم ، وطول الإمساك ، والتعجل فى تناول الطعام والبؤر المتقيحة فى الجسم ـ كالدوزنتين مثلا ـ دون علاج ، والأذى كيفما كان ، يصيب منطقة المصران الأعور ، فيقفل الزائدة ويسدها ، فيجعلها أكثر عرضة للالتهاب .

أما التهاب الزائدة بما يصل إليها وينحشر فيها من حب العنب والجوافة والتين الشوكى وأمثالها ، فخرافة أخرى لم يؤيدها التحقيق .

وكثيراً ما تتشابه أعراض التهاب الزائدة الدودية بأعراض علل أخرى داخل الأحشاء ، كقرحة المعدة والتهاب المرارة ، والحمل خارج الرحم ، فتستأصل الزائدة عبثاً ، ولا يغنى عنها صراخها أنها بريئة والله العظيم !!

ومن أجل ذلك فإن الجراح الحازم عندما يريد استئصال الزائدة الدودية ، لا يجعل جرحه كالكوة الصغيرة فوق الزائدة رأساً ، لكى يرضى أنانية المريض ـ ولاسيما إذا كان سيدة تخشى على جمالها أن تشوهه الندوب ... وإنما يفتح فى البطن فتحة محترمة تسمح له أن يبحث عن المجرم الحقيقى ، ويقبض عليه إذا ثبتت له براءة الزائدة وظلم الاتهام .

وهو فى هذه الحالة يلائم بين حافتى الجرح بطريقة لا تترك منه بعد التئامه إلا خطاً لا تكاد تتبينه غير عين الباحث عن عيوب !! .. ومثل هذا قد يحدث فى الدوسنطاريا الأميبية ـ ووطنها الأول هو المصران الأعور ؛ فقد تشبه أعراضها أعراض التهاب الزائدة المزمن ، فيشكو المريض من عسر الهضم والانتفاخ ولا يتهيأ التشخيص الحقيقى فى هذه الحالات بغير التحاليل المختلفة وتصوير الأمعاء .

ولقد شبه النهاب الزائدة المزمن بقنبلة تهدد صاحبها فى أى وقت بالانفجار ، ولكن تقدم الطب العلاجى فى الوقت الحاضر ، جعل هذه الحقيقة القديمة خرافة اخرى تضاف إلى الخرافات الكثيرة التى تتراكم كالقمامة فى زقاق المصران الأعور المسدود .

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية ، تصدرها دار المعارف منذ عام ١٩٤٣ ، مساهمة منها فى نشر الثقافة والعلوم والمعرفة بين قراء العربية .

صدر خلالها وحتى الآن أكثر من ستمائة عدد لكبار الكُتاب منها :

١ - قنديل ام هاشم
يحيى حقى

٢ - أحلام شهر زاد
د . طه حسين

٣ - سنوحى
د . محمد عوض محمد

٤ - مهد العرب
عبد الوهاب عزام

٥ - من النافذة
إبراهيم عبد القادر المازنى

٦ - سارة
عباس محمود العقاد

٧ - من ذكريات الفن والقضاء
توفيق الحكيم

٨ - النسيان
د . أحمد فؤاد الأهوانى

٩ - القرآن والتفسير العصرى
د . بنت الشاطىء

١٠ - مع الآخرين
أنيس منصور

١١ - مع العقاد
د . شوقى ضيف

١٢ - عجائب الأرض والسماء
د . محمد جمال الدين الفندى

١٣ - ٤٥ مشكلة حب
د . مصطفى محمود

١٤ - هؤلاء علمونى
سلامة موسى

١٥ - سندباد فى رحلة الحياة
د . حسين فوزى

١٦ - رسائل وأسرار
محمد التابعى

رقم الإيداع	١٩٩٥/٥٦٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4992-0

١/٩٥/٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)